نجيب الكيلاني

نحن.. والإسلام

مؤسسة الرسالة
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

« قل هذه سبيلي ، أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني ، وسبحان الله وما أنا من المشركين .. »

صدق الله العظيم


نَحْنُ.. وَالإِسْلَامُ

الطبعة الأولى

١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.

مؤسسة الرسالة — بيروت — شارع سورية — بناية صمدي وصالحة
هاتف ٢٩٥٥٠١—٢٤١٦٩٢ ص ب ١١٧٤٦٠ برقياً: بيوشران

مقـــدّمة

إن الأمة عندما تحل بها أزمة من الأزمات، أو تستعصي عليها علة من العلل، ليس من الحكمة أن تلقي بنفسها في أتون المعركة الحامية دون أن تتخذ العدة لذلك، وتضع التخطيط المناسب لحجم المعركة، وعليها في الوقت نفسه أن تدرس أسباب الخلل الطارىء وتدرس أبعاده، وبذلك تستطيع أن تضع التشخيص الصحيح لما أصابها، ومن ثم يمكنها – في ضوء التجربة والتفكير الحر النزيه – أن تعثر على العلاج الناجع لكل أدوائها ..

وبالطبع فإن فورات الحماس الطائش، والاندفاع الأرعن، والتخبط الارتجالي لن يحقق النتيجة المرجوة، ولن يصل بنا إلى برّ الأمان، وليس من باب الصدفة المحضة ان تتبجح الصهيونية وتغالي في أطماعها وغرورها، وأن يباد المسلمون في الفيليبين، ويطردوا من بورما، ويذبحوا في أريتريا، ويمزقوا في أوجادين، وتدبر لهم المكائد في باكستان، ويمحى وجودهم في أراضٍ أخرى .. أقول ليس من باب الصدفة أن يحدث هذا

كله في وقت واحد، فالأمر جد خطير، وأي مراقب للأحداث في هذا العصر، يدرك أن هناك مخططات خبيثة ترمي لتمزيق وحدة الصف الاسلامي، وتعويق مسيرته، وإثارة غبار الشبهات والمطاعن من حوله، وبذلك يبقى أسير الضعف والهوان، مغللاً بأغلال التخلف والفقر والجهل، وبديهي أن تُنزح ثرواته، وتستنفد طاقاته في معارك جانبية، تبعده عن الهدف الأسمى الذي رسمه الله لخير أمة أخرجت للناس.. وكان لزاماً على كل مسلم أن يلم بأطراف تلك المؤامرة التاريخية الخطيرة، وأن يفعل شيئاً – أي شيء – لكي يجنب جيله والأجيال القادمة مؤنة الضياع والدمار ..

وعلى كتّاب هذا الجيل أن يدركوا أساسيات الفكر الاسلامي وقوانينه الحركية، وعناصر السلب والايجاب فيه، وأن يوجهوا قدراً أكبر من الاهتمام لشباب هذا الجيل، الذين سوف يحملون الامانة من بعدهم ..

وقناعتي التامة، بأنه لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح بها أولها، وأن الحل الاسلامي هو الحل الأمثل، وأننا أمام طوفان العقائد والقيم الوافدة من أرض غريبة، لا يمكننا أن نحمي كياننا وتراثنا ومستقبلنا، ونحقق النصر في معركتنا المصيرية الحاسمة إلا إذا التزمنا بعقيدة تقوى على مجابهة تلك التحديات المدعمة بمنجزات العلم الجديد، والتكنولوجيا الحديثة .. هذه العقيدة هي الاسلام.. ولنا في تجربته الحضارية

أصدق برهان على ما نقول ، ولنا في عناصره المتماسكة الشاملة ـ إذا ما قيّمت بالمقاييس العلمية المحايدة الصادقة ـ أقوى دليل..

***

وهذه الصفحات التي تناولت فيها بعض الجوانب الهامة في الفكر الاسلامي ، إنمـــا هي مجرد لقطات من تراث الفكر الاسلامي الضخم ، وبطبيعة الحال فهي لم تكن شاملة لكل ما يجب أن يقال في هذا المجال، ولكنها في الواقع كلمات موجزة، تشير إلى ما يجب أن نفكر فيه ، ونركز عليه في هذه الآونة ، وقد قصدت بها ـ أساساً ـ شباب الجيل الجديد ، آملاً أن يتخذوا الانصاف والعدل والتجرد ديدناً لهـــم وهم يتلقون الفلسفات المعاصرة ، فلا يقعوا في الفخ الذي نصبه لهم طوابير الغزو الفكري ، وينصرفوا عـــن دراسة تراثهم الاسلامي ، وأصول الحضارة الاسلامية الخالدة ، وبذلـك يمكنهم ان يعقدوا الدراسات المقارنة المنصفة .. أن مثـل الذين يكتفون بالأفكار المستوردة ، ويتخذون على أساسها موقفاً كمثل الذي يسمع من طرف واحد ، ثم يصدر حكمه في القضية .. وحاشا لله أن يكون شبابنا كذلك ..

فلنقرأ معاً هذه الصفحات ، لعلنا نجد فيهـا نافذة تطل بنا على الأمل في حياة أفضل وأعدل وأروع ..

والسلام .

نجيب الكيلاني

الشخصيّة الإسلاميّة

العلاقة بين الحضارة والشخصية علاقة أساسية وثيقة ، لأن الإنسان بما يحمله من قيم وأفكار ، ومـــا يؤديه من سلوك ، وما يستقر في خاطره من أهداف ، ومـا يتخذه من وسائل ، هذا الانسان هو صانع الحضارة ، وبقدر ما تتميز به شخصية الانسان ، تكون تميز الحضارة التي يعبر عنهـــا ، ويؤثر فيهـا ويتأثر بها ..

وبذلك نستطيع ان نقول أن الانسان هو لبنة البناء لهذه الحضارة بما يترجم عنها من تصرفات وسياسة واقتصاد وفن ، ولهذا كان لكل حضارة من حضارات التاريخ الصورة الخاصة بها ، فالحضارات المعاصرة بمـا لها من صفة مادية ترتكز على إشباع حاجات الإنسان الماديـــة الملموسة التي تتعلق بمأكله وملبسه ، وشرابـــه وطعامه ، وقوته ونفوذه ، والوسائل الصناعية التي يسّرها له العلم ، كي يحيا حياة فيهـا الرفاهيـة والراحة والرخـاء المادي بمختلف صوره وألوانه ، بصرف النظر عمـا تعتنقه حضارته تلك من مظالم وإجحاف بحقوق الضعفاء والمساكين من الشعوب الفقيرة التي لا تملك أدوات القوة

والعلم والتكنولوجيا ، فهي حضارة سعادة عند البعض، وعالم من شقاء عند البعض الآخر ..

لكن الشخصية الاسلامية العادلة الواعية المؤمنة هي التي قدمت أنظف حضارة عرفها الانسان في تاريخه الطويل ..

وكانت هذه الشخصية إسلامية بكل ما تحمله تلك الكلمة من معانٍ .. فالإسلام قد وضع الآداب الأخلاقية والاجتماعية لهذه الشخصية ، فالمسلم في حياته اليومية ، ملتزم بتلك الآداب صباحاً ومساءً، يسير في ضوء الشعار الكبير الذي رسمه القرآن الكريم بقوله :

« ما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ، ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ، إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين » .

والعبادة لها معنى شامل واسع ، فهي تحتضن كل الصور الحية الايجابية في حياة الانسان ، فنجد فيها الصلاة وما تعنيه من طاعة لله ، وشكر على نعمائه ، وما تزخر به من خشوع وصفاء وحب ، وما تضمه من تجرد ووحدانية لله ، وطرد كل وساوس الخوف والشك ، وإفراد المولى بكل سلطان وقدرة وتصرف في شؤون الكون بكل ما فيه من إنسان وحيوان ونبات وجماد ، ودعاء بأن يكون الله إلى جوارنا ، ليهدينا الى

الطريق المستقيم ، ولينجينــــا من الغفلة والضلال والشرك ذي الصور العديدة ..

والصوم بما يزرعه فينا من ألوان الاستسلام لله ، والاستجابة لآدابه التي دعانا إليها ، وتعلم الصبر والإرادة ، وجعله سبحانه وتعالى هو المقصد والمآب ، وغير ذلك من المعاني الخالدة التي تجعل من الصوم مدرسة تربوية بكل ما تحمله تلك الكلمات من معنى الصوم الصادق الصحيح هو الآخر عبادة ..

والزكاة وأهدافها السامية في تنقية النفس من الجشع والطمع والأنانية ، واستشعار رباط الإخوة والتضحية والإيثار والتعاون بين أفراد الامة جميعهم ، وإزالة الاحقــاد والحقد والحسد من النفوس ، وتقريب المستويات الاجتماعية والاقتصادية . . على أساس أن المال مال الله ، وأننا مستخلفون فيـــه .. الزكاة بمعناها الحقيقي هي الأخرى عبادة من أحسن العبادات ..

والعمل من أجـــل كسب العيش ، والسهر على الصناعة والزراعة والتجارة الامينة ، وكل مـــا يتعلق بأوجه النشاط الانساني في الجانب المادي ، يعتبر عبادة حقيقية ، مـــا دام الهدف وجــه الله ، وليس استغلال الغير ، أو الافتئات على حقوق الآخرين ..

والدعوة الى الله ، وما يواكبها من تجرد وجهاد في سبيله ،

وذلك بقصد إنارة العقول ، والاخذ بيد البشر إلى الطريق المستقيم ، وفتح السبل أمام كلمات الله كي تصل إلى المعزولين المحرومين المحتاجين إلى الهداية ، وإلى العقيدة الصحيحة ، وأسس الحياة العادلة ، وأفضل النظم لتنظيم العلاقات الاجتماعية والفردية ، كل هذه الامور عبادة من أروع العبادات ..

وطلب العلم بالنسبة للشخصية الاسلامية فريضة ، العلم بشقيه : الديني والدنيوي ، فهما في نظر الاسلام يضمهما نسيج واحد ، لأنهما يشتركان في غاية واحدة ، هي الوصول الى الحقيقة ، كي نعرف الله المعرفة الصادقة ، ونحقق السعادة للانسان ، وننهض بشؤون هذه الدنيا في شتى نواحيها .. العلم إذن على أساس هذا التصور عبادة ، بشرط أن يكون أداة بناء لا تدمير ، ووسيلة إسعاد لا إشقاء ، ونبراساً يهدي ، لا ناراً تحرق ..

والحج عبادة ، لما يتمثل فيه من طاعة لله ، وأداء للشعائر ، والتقاء مع إخوة الإسلام من شتى أنحاء الأرض ، والالتزام بزي واحد يلبسه الملوك والسوقة ، وصور الوحدة الأخرى من سعي وطواف وتلبية وتهليل وابتهال الى الله ، وتذكر لنعم الله علينا ، وتحصيل قدر من المعرفة بسبب الأسفار أو السياحة المقدسة ، وربط الجميع بحركة منتظمة شاملة تملأ قلب المؤمن بقيم غالية رفيعة ، تزيد المجتمع الاسلامي ترابطاً وتوثقاً ومحبة ..

وقس على ذلك ، فإن كل أعمـال البر والتقوى ، والصدق والصبر ، والأمانـة والعفة ، وتحمّل الإيذاء في سبيل الله ، والرضى بقضائه ، والشكر على نعمائه ، وتلبية ندائه ، في أي جانب من جوانب العمل أو السلوك أو القول ، كلها تدخل في إطار العبادة بمعناهـا الشامل ، فليست العبادة مجرد كلمات تقال ، ودعوات تلقى ، وحركات تؤدى ، ولكنها حياة المسلم.. لأن المسلم الكامل - والكمال لله وحده - عبادة صرفـة ، يؤجر عليها .

وهذه العبادة لا تعود بالفائدة على الفرد فحسب ، بل تأتي بالخير على المجتمع بأسره ، سواء منه المسلم وغير المسلم ..

هذه العبادة بمعناهـا الشامل هي التي شكلت الشخصية الإسلامية ، واتصاف هذه الشخصية بتلك الصفات الإلهيـة الفريدة هي التي أرست قواعد أعظم حضارة عرفهـا التاريخ قديماً وحديثاً ..



وكان تشرُّب الشخصية الإسلامية لهذه الصفات قائمـاً على أساسين اثنين لا بد منهما :

أولهما : الكلمة .. أو الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة ، وما تشمله تلك الدعوة من قوة منطق ، وصدق إقنـاع ، وعظمة تسامح ، وحرية في التفاهم والتعبير والمناقشة ،

دون قهر أو مَنٍّ أو تعالٍ .

وثانيهما: القدوة الحسنة ، فلا معنى للكلمات المجردة ، ما لم تكن سلوكاً يحتذى ، وحركة حياتية إيجابية نافعة « وقل اعملوا » .. وما أوسع المسافة بين النظرية والتطبيق ، وقد يكون من السهل أن يضع الانسان آلاف الأفكار والنظريات والنصائح لكن الصعوبة الكبرى تكمن في تنفيذ هذه الافكار ، وترجمتها الى واقع حي مؤثر ..

وفي عصرنا الحاضر ندر المثال الصحيح للشخصية الاسلامية ، فالعلماء على المنابر يصيحون ليل نهار ، وأبواق الإذاعة والتليفزيون تصرخ بالقيم والآداب الاسلامية ، وتقدم النصوص والمستندات على صدق قولها ، والصفحات تسود بالمديد من البحوث والمقالات والأقاصيص عن الاسلام وعدل الاسلام ، ولكننا لا نجد المجتمع المسلم ولا الشخصية الاسلامية ، بالصورة التي أرادها الله ، ودعا إليها رسوله الكريم ﷺ ..

إن آفة الإعلام الاسلامي تكمن في أن ما يقال منه يختلف تماماً عن واقع المجتمع الذي يشهده المتلقي ، والواقع الصارخ بالمخالفات الاسلامية ، الغارق في متاهات البدع والسلوك المستورد ، والاخلاقيات المستعارة .. هذا الواقع المشوّه يتناقض تناقضاً مريعاً مع كل ما يقال من وسائل الاعلام ومن

فوق المنابر، ولذلك سرعان ما ينسي الناس ذلك الكلام، عندما يغوصون في أعماق المجتمع ، ويندسّون بين الجموع في الشوارع ، حيث النساء كاسيات عاريات ، وحيث المعاملات يشوبها الكذب والخداع ، وحيث الكلمات البذيئة ، والعبث واللهو ، ولا يكاد يبقى من ذلك التصور الاسلامي شيء إذا ما ارتاد الناس دور الفن والغناء والطرب ، وأحاديث المشاهير من النساء والرجال التي تفتح لها الصحف والمجلات صدورها . .

هذا التناقض المريع .. أو هذا التمزق بين ما يقال عن الاسلام ، وما نراه في الحياة العامة ، قد أفسد الشخصية الاسلامية ، وبالتالي لم نستطع بعث الحضارة الاسلامية .. وقد حدث هذا في غياب التخطيط الشامل لصنع الشخصية الاسلامية ، فليس هناك إلزام من قبل السلطات لأي منحرف كي يعود الى الطريق الصحيح ، وليس هناك تنسيق بين ما يقال هنا ، ويقال هناك ، أو يكتب على تلك الصفحات وما يكتب في غيرها ، فبعد الحديث الديني مثلاً ، قد يقدم المذيع أغنية خليعة ، أو رقصة مثيرة ، أو قصة سينمائية شاذة تمجد أفكاراً وتصرفات تتناقض تمام التناقض مع التصور الاسلامي للكون والحياة والناس .. وكذلك نرى طلبة العلم تُحشى أدمغتهم بالنصوص الاسلامية المجردة أو الجامدة ، وقد يأخذون هذه النصوص عن معلم لا يؤمن أصلاً بما يقول ، ولكنه أوتي قدراً من براعة الصنعة في العرض وتلقين الدروس ، مع أن مظهره

ومخبره يتنافى تمام المنافاة مع الآداب التي يلقنهـا للناشئة .. وهكذا أصبح تدريس التربية الاسلامية وظيفة محددة بمنهج ، وأصبحت دروسه منفصلة عن باقي الدروس ، وكأنـه شيء غريب عن الحياة .. مع أن الاسلام هو حياتنا .. حياتنا حين ننام ونصحو ، وحـين نأكل ونشرب ، وحين ندرس العلوم العصرية وغير العصرية ، وحين نمارس ألوان الفنون والرياضة ، وحين نحارب أو نلجأ للسلم، وحين نخطط لاقتصادنا ، ونصرف تجاراتنا ، ونعقد صفقاتنا ، وحـين نلبس أزياءنا ، ونستقبل ضيوفنا ، ونتفاوض مع غيرنا ، أو ننسق مواقفنـا معهم ، أو نتبادل معهم المنفعة والمعاهدات المختلفة ..

أصبحنا نتكلم مـع أبنائنا عن « العيب » ولا نتكلم عن « الحرام » ، وشتان بين هذا وذاك ، فالعيب قـد يناقض العرف ، أما الحرام فيناقض شريعة الله ، ومن ثم كان اهتمامنا وتركيزنا على العرف أو الأوزان المستحدثة — برغم ما فيها من أخطاء — أكثر من اهتمامنا وتركيزنا على آداب ديننـا وأوامره ونواهيه .. وبعد ذلك نأتي ونقول :

« أين الشخصية الاسلامية؟؟ وأين معالم الحضارة الاسلامية؟» إن الشخصية الاسلامية لا تأتي من فراغ ، ولا تنبت في هـذه التربـة الفاسدة ، ولا يمكن أن تنمو وتترعرع في هـذا الهواء الفاسد ، لأن غذاء الشخصية الاسلامية وريهـا من عناصر

الكتاب ، ومن ينبوع النبوة ، ولا تستطيع أن تتنفس إلا في الأجواء النقية التي لم تلوثها البدع المستوردة، والأفكار الغازية، ووسائل التحريف والانحراف والضلال التي تكاتفت قوى الشر والبغي لحشوها ، كي تقتل هذه الشخصية الفريدة أو تخنقها ..

ومن ثم كان من الضروري أن تخضع وسائل الإعلام كافة لهيمنة الفكر الإسلامي والتخطيط للاسلام ، وأن يقوم بالتنسيق فيها فئة من الرجال المؤمنين الواعين الذين يعرفون الاسلام معرفة جيدة ، بالاضافة الى إلمامهم بالوسائل الحديثة في الدراسة والتخطيط والتربية والعلوم النفسية ، ولا بد أن يكون هناك ترابط بين البرامج الدينية البحتة وغيرها من برامج الفنون والآداب والعلوم والدراما والأغاني وغيرها، حتى تكون تلك الفروع كلها دعامة للقيم الاسلامية الخالدة ..

ولا بد من إعادة النظر في مناهج التعليم حتى ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالفكر والسلوك والحياة ..

ولا بدّ أولاً وأخيراً أن نقف حراساً على حدودنا حتى لا يتسلل جندي من الأعداء فحسب ، بل حتى نرد كل غزو فكري ، وكل ضلال عقائدي عن أجيالنا ، ولا بد أن تؤدي السلطة دورها الى جانب الدعاة المؤمنين .. بذلك تعود الى الظهور شخصيتنا الاسلامية المفقودة ..

واحة الاتحاد

هذا مجرد خطاب مفتوح .. ننشره في الضوء لكل من « يهمهم الأمر » على امتداد رقعـــة العالم العربي والاسلامي .. أما من يهمهم الأمر في تلك الدنيا الفسيحة فهم الشباب الذين سيحملون المسؤولية الثقيلة في الغد القريب .. وهم أيضاً الكهول والشيوخ الذين يشاركون اليوم في صنع القرارات المصيرية كشعوب.. ثم هم أيضاً رجال الفكر والفن والعلم لأنهم قادة كل نهضة .. ثم الى من يهمهم الأمر « بصفة رسميـــة » أصحاب الجلالة والسمو والفخامة في أرض الإسلام ..

ماذا أريد أن أقول في هذا الخطاب المفتوح ؟

أريد أن أتحدث عن الوطن .. والراية .. والرسالة ..

قد يكون الكلام بديهياً أو منطقيـاً أو مقبولاً .. لكن

القضية ليست قضية اقتناع فحسب .. فما أكثر الكلام المنطقي المعقول في عصرنا ، فالقضية الخطيرة التي تواجهنا اليوم ليست قضية أفكار .. ولكنها قضية « التزام وعمل » بالدرجة الأولى .. فهل ينكر أحد أن أمتنا تعبر مرحلة حرجة وخطيرة في تاريخها المعاصر ؟ هل في الامكان أن نتجاهل الحقيقة المرة وهي أن العدو – أياً كان هذا العدو – يكتسب مواقع جديدة على حسابنا ؟ وأخيراً هل يتجاهل أحد أننا نعاني من بلبلة شديدة ، وحيرة قاتلة ، واضطراب بالغ ، في أرجاء العالم الاسلامي كله ؟

وسط هذا الطوفان الهادر من المشاكل والنكسات والقلق ، تنطلق أقلام بأفكار ساذجة غريبة .. بل مدمرة.. وتصوري أن تلك الافكار الخطرة إنما هي سلاح غادر من أسلحة الاعداء، وإن تكلم بها ، أو روّج لها إخوة لنا يعيشون بين أظهرنا ..

وإلا فما معنى تلك الصيحات التي تدعو الى « الإقليمية » كتّاب كثيرون باسم حرية الفكر، ينادون بالانعزالية والتقوقع والتركيز على المشاكل الداخلية الخاصة بكل قطر . . باسم المصلحة العامة تارة ، وباسم الاستفادة من التجارب المريرة تارة أخرى .. وباسم العصرية أو التقدمية مرة ثالثة .. وهكذا يغلفون دعواتهم المشبوهة بادعاءات وألفاظ براقة ..

إن أخوف ما أخافه أن يتعجل صناع القرارات السياسية

في وضع خطط وبرامج وفلسفات متأثرة بالوضع الراهن ، وما شابه من غضب وتوتر وخلافات مرحلية وعواطف شخصية .. فنحن نعيش مرحلة قصيرة من عمر الزمن مهما كان طولهـــا .. العقــلاء وحدهم هم القادرون على كبح مشاعرهم في وقت الشدة أو الغضب.. والمخلصون وحدهم هم القادرون على انكار ذواتهم، والنظر الى بعيد .. الى المستقبل .. والى الماضي أيضاً ..

لم ننتصر على العدو حتى الآن ونحن متجمعون ، فكيف نحقق أهدافنا إذا تفرقنـــا ؟ ونحن اليوم في عالم « الكيانات الكبيرة» سواء أكانت كيانات سياسية أو اقتصادية أو عقائدية، ونحن لا نواجه اليوم اسرائيل وحدها ، وإنمـــا نواجه علاقات متشابكة معقدة ، لكنها منظمة .. نواجه فكراً وفلسفة وفناً وسياسة واقتصاداً ، جندها العدو لخدمة أهدافه ومخططاته ..

لماذا لا نبحث لنا عن ملتقى فكري يجمعنا ؟. ورحم الله شاعرنا الذي قال :

ولست أبغي سوى الإسلام لي وطناً
الشام فيـــه ووادي النيـــل سيان

حتى إذا ذكر اسم الله في بلـــد
عددت أرجـــاءه مـــن لب أوطاني

فالعقيدة هي وطننا ، هي التي جمعتنا بعد شتات،وحققت

لنا النصر بعد ضياع ، ومكّننت لنا في الارض ، فنعم الناس بالعدل والحرية والإخاء ، والعجيب أن اسرائيل فعلت ذلك.. ان أي يهودي في أية بقعة على الكرة الأرضية هو اسرائيلي .. لقد تعلموا من أجدادنا،عندما كانت دولة الاسلام دولةفكرية.. فكل حامل لراية التوحيد مواطن في تلك الدولة الشاسعة ..

وقد ينبري لنــا أحد الفلاسفة الذين يدّعون العصرية أو التقدمية أو العلمانية ، ويقول لنا : كيف ذلك ، وبيننا أديان أخرى غير الاسلام ؟ وهذا سؤال مضحك ، له بريق خداع ، فالمعروف ان تواجــد المسلمين كأقلية في أمريكا أو أوربا أو الصين أو الهند أو غيرها ، لم يرغم شعوبها وحكامها على أن يتخذوا المنهج الاسلامي أسلوباً في الحياة .. فلا يستطيع عاقل ان يقبل تعطيل مناهجنا العقائدية لمجرد وجود فئــات غير مسلمة بيننا ، ناهيك بمــا وضعه الاسلام من ضوابط وقوانين وآداب ، تنظم العلاقات الانسانية ، والاحوال الشخصية بين المسلم وغير المسلم، بطريقة عادلة شهد لها الأعداء قبل الاصدقاء.

ذلك هو الوطن الذي نريد،الوطن الذي يمتد شمالاً وجنوباً، وشرقاً وغرباً ، الوطن الذي يعيش على أرضه مــا يقرب من سبعمائة مليون مسلم ، يملكون قدراً ضخماً من ثروات العــالم البترولية والمعدنية والزراعية والحيوانية ، ويملكون مساحات هائلة من الارض والبحار والانهار والصحارى والجبال والآفاق

الصالحة للملاحة الجوية .. ويحتلون مراكز استراتيجية ممتازة.. ولا شك ان هذا التكامل الفريد من نوعه ، يستطيع ان يحقق اكبر حشد للطاقات الانسانية – مادية وروحية – في هذا العالم ..

تصوروا .. لو تحقق الحلم ، وتلاقى المؤمنون بشريعة الله ، وساروا في زحف واحد ، تخفق عليه راية واحدة هي راية « التوحيد » .. تصوروا .. ماذا يمكن أن يحدث ؟ وأية قوة في الارض يمكنها أن تغامر وتتصدى لهذه الحشود ؟

اذا كان هناك من لا يصدق ، فليقرأ معي تلك الكلمات من كتاب الله « كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف، وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله .. »

هذا التميز الذي أنعم الله به على أمتنا ، لم ينبع من إقليمية ضيقة ، أو نزعة فكرية منحرفة ، وانما كان هذا التميز مرتبطاً بعقيدة الله ، بالرسالة الخالدة التي جعلت هدفها تحرير الانسان من الخوف والعبودية والضيق ، ونشر الفضيلة والحب والخير والسلام بين البشر أجمعين ، ومحاربة الفساد والانحلال والظلم والقهر في أي مكان ، كل ذلك من أجل ان ينعم الناس بالسعادة والأمن والرخاء .. ومن أجل ان نحقق الرسالة المنوطة بنا ، والتي دعانا الله لحملها ، ولست اتحدث من عالم الخيال

والمثاليات المجرّدة .. فالتجربة واقعة ، والتاريخ شاهد .. ولا جديد تحت الشمس ..

ان المحن التي اجتاحت العالم الاسلامي في تاريخه الطويل ، وما اكثرها ، لم تنفرج أزماتها إلا في إطار هـذا المفهوم .. فليقل فلاسفة العصر مـــا شاءوا . . وليقل دعاة العصرية والتقدمية (أعني الاقليمية) ما يريدون قوله ، فهم يقعون في خطأ تاريخي لا يغتفر ، ويجنون على شعوبهم ومستقبلهـا .. فالذئب لا يأكل إلا من الغنم القاصية .. وأي معركة في الدنيا لم تحسم إلا بشحذ الطاقات ، ووضوح الهدف ، وفي ظل القيم والمبادىء القوية ، ولا خيار لدينا في اختيار العقيدة ، فكوننا مسلمين جعلنا ملتزمين بالاسلام منهجاً وسلوكاً .. وبـه بدأنا عصر اعظم وأعدل حضارة عرفها الانسان .. وبه عشنا تاريخنا الطويل.. ثم فيه خلاصنا.. والذين افلتوا من الالتزام الاسلامي أفراداً او شعوباً – ليلحقوا بموكب العصر – لم يتحصلوا إلا على نفايات ومظاهر او انتصارات شكلية تافهـة ، وإن كانت في الواقع خسراناً كبيراً ، وتمييعاً لذاته وشخصيته وكيانه ..

والمحن أمور طبيعية في حياة الأمم ، فلا بد من العواصف والرعود والبراكين والطوفانات .. قد تكون ابتلاء من الله أو عقاباً ، وقد تكون هزة عنيفـــة لتوقظ الغافلين ، وتبعث النشاط والحيوية في الخاملين، وتجدد الفكر في العقول الراكدة..

المهم ان تصدق النوايا ، ويستقر الايمان ، وأن نفي بعهدنا مع الله ، ولنحذر ان تحرفنا النوازل عن الجـــادة ، او تبذر في نفوسنا بذور اليأس والملل ، وصدق الله العظيم إذ يقول :

« من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلا ».

وبعد .. ليست هذه مجرد دعـــوة للخلاص من المآزق التاريخية التي تأخذ بخناقنا فحسب ولكنها أيضاً دعوةللحياة .. وصيحة للحرية .. وهـــل الحرية إلا تحرير النفس من الخوف والاكاذيب والاوهام ، وتحرير العقـل من الفلسفات المريضة ، وأفكار الانانية والتعصب الأعمى والتبعية والتقليد ، وتحرير الجسد من النزوات الطائشة والرغبـات الحرام ؟؟ التحرير من ذل الحاجة ، ورذيلة النفاق ، وشهوة الطمع ..

ثم لنضع الأمر أمام أبنائنا بوضوح وصدق . . ولنساعدهم على ان يؤمنوا بما نقول ، فقد تستطيع هذه الأجيال ان تحقق ما لم نستطع نحن ان نحققه ، وليفهموا جيـداً معنى الوطن .. والرسالة .. والراية ..

وهناك نقطة أخرى ترتبط بهذا الموضوع نفسه ، وأعني بها أثر الفكر الاسلامي في النهضة العربية والاسلامية المعاصرة، ان حركات التحرير الكبرى في دول الشرق قد حمل لواءهـا فئة

من كبار المفكرين المسلمين ، ومن منا يجهل دور المفكر الكبير جمال الدين الافغاني الذي كان لدعوته صدى بعيد المدى في بلدان كثيرة ، وتتلمذ على يديه نخبة من المجاهدين الاحرار ؟ ومن يستطيع ان ينكر دور الاستاذ محمد عبده ، وعبد الرحمن الكواكبي ، وعمر المختار ، وهيئة علماء الجزائر ، وقبل ذلك كله الدور الذي لعبه الازهر في حركة اليقظة الكبرى إبان الحملة الفرنسية وأيام حكم محمد علي وبعده ، بل ونجد أثر الفكر الاسلامي في ثورة ١٩ أيام سعد زغلول ومن قبله مصطفى كامل وعرابي وغيرهم .. ولم يكن ذلك حدث طارىء في النصف الاول من القرن العشرين ، وإنما كان ذلك كله امتداداً لموجات الزحف الاسلامي التي واجهت الحروب الصليبية الكثيفة المتتالية .. والتصدي لطوفان المغول ، والصراعات القبلية والعنصرية التي كانت تطفو على السطح من آن لآخر . ثم ألم يكن الاسلام هو الذي وحّد الجزيرة العربية في مطلع الدعوة الاسلامية ، وجعل منها كياناً واحداً صلباً استطاع ان ينشر نور العدل والحرية في العالم آنذاك ، تحت راية المبادىء الاسلامية الخالدة .. لأن تلك المبادىء هي التي انصهرت في بوتقتها كل الألوان والأجناس واللغات « كلكم لآدم وآدم من تراب » وهكذا صنعت تلك الحضارة نوعاً من التناسق والانسجام والتميز ، لا مثيل له في أية حضارة من الحضارات .

نحن في عالم اليوم

الحقيقة التي لا مراء فيها ، هي أن العالم الإسلامي ، ويدخل فيه ضمناً العالم العربي ، قد تشابهت علله ومآسيه ، وأي شعب من شعوب الأمـة الإسلامية يعاني من نفس المشاكل التي أخذت بخنـــاق أي شعب آخر ، وإن تفاوتت النسب ، وتراوحت المستويات المادية والثقافية والاجتماعية بين الصعود والهبوط ، ومع هذا التفاوت إلا أن الجميع يلتقون عند نقطة تكاد تكون واحدة ، وهي الإحباط في مجابهة القوى الطامعة شرقاً وغرباً ، وعدم القدرة على تحقيق نصر حاسم في معركة السياسة الخارجية .. ثم ذلك « الإزمان» المخيف لمرض الصهيونية الذي أصاب الجسد بالوهن والآلام ، وأضنى النفس بجراح لا تندمل .. «والمصائب – كما يقال – يجمعن المصابين » .

وهناك سؤال هام أحرى بأجيالنا – صانعة المستقبل – أن

تدرك أبعاده ومراميه ، هذا السؤال هو :

- كيف ينظر عالم اليوم إلى المسلمين ؟؟ ثم ، كيف ينظر المسلمون إلى غيرهم ممن يخالفونهم في المعتقد والجنس والمستوى الحضاري ؟؟

إن محاولة الإجابة على هذا السؤال ، قد توضح لنا « الموقف » الذي نعيشه ، وتلقي الضوء على جانب من العلاقات الدولية التي نتأثر بها ، وقد يساعدنا ذلك على إعادة النظر في الفلسفة التي تقوم عليها حياتنا ، والتحركات الضرورية التي نحاول بها أن ننجو من ذلك « المأزق » التاريخي الذي ترك بصماته على أوضاعنا ونفسياتنا وأفكارنا ..

ونستطيع أن نوجز نظرة العالم المعاصر إلينا في النقاط التالية :

أولاً : إن الشرق والغرب على السواء ينظر إلينا نظرة طمع وحقد وحسد باعتبار أن الله قد حبانا بثروات طبيعية هائلة، هذه الثروات هي الإغراء الذي سال من أجله لعاب الاستعمار في القرن التاسع عشر وفي القرن العشرين ، وبسبب تلك الثروات، مضافاً إليها الموقع الاستراتيجي الهام، والتكتلات العالمية، والصراعات الإقتصادية، أقول بسبب تلك الثروات وما جرّته من أطماع، وما تبع ذلك من ثورة صناعية حديثة،

كان من الضروري في حالة من الغفلة والترهل والتمزق تسمح لهؤلاء الطامعين باستنزاف ثرواتنا ، ولن يتم ذلك إلا إذا تمزقت أواصرنا بماضينا وتراثنا، وأهملت المبادىء أو العقائد التي لا يمكن أن تنهض أمة من الأمم بدونها ، وهكذا استطاع الأعداء أن يرسموا خططهم في براعة ودقة ، وأن يتفقوا على « حد أدنى » من الوفاق فيما بينهم ، برغم تعارض أهدافهم ومصالحهم ، حتى نظل دائماً في قبضتهم . لأننا – كما هو واضح – مصدر حياتهم ونهضتهم الصناعية . وأمنهم وقوتهم .. ولعل بعض مفكرينا قد أدرك ذلك منذ البداية ، إلا أن استجابة شعوبنا لصيحات التحذير كانت دون المستوى المطلوب بكثير ..

ثانياً : إن أشد ما يخشاه الطامعون فينا ، أن تنطلق حركة بعث اسلامي ، ترفع لواء المقاومة ، وتغذي ملحمة الصراع الهائلة المنتظرة ، وقد يظن البعض أن هذا التصور بعيد عن الواقع ، أو أنه وهم وأحلام ، لكننا لو تذكرنا تلك المحاضرة الشهيرة التي ألقاها رجل السياسة المعروف في البيت الأبيض أيام الرئيس « جونسون » في احد الجامعات الأمريكية ، يقول « روستو » : « إن بقاء اسرائيل أمر حيوي ، لأنها تقف سداً منيعاً في وجه أي زحف إسلامي مرتقب ، وبذلك لا نقاسي من حروب صليبية جديدة ، ثم أن اسرائيل امتداد للحضارة المسيحية في الغرب ..

(كذا) » اسرائيل الصهيونية التي تعتنق اليهودية ، امتداد للحضارة المسيحية ..

وقد نشرت هذه المحاضرة في إحدى المجلات الأمريكية الشهيرة ، ومن أراد المزيد من التفاصيل عن هذه المحاضرة، فليرجع إلى كتاب « الله أو الدمار » لمؤلفه الاستاذ « سعد جمعة » رئيس وزراء الأردن الأسبق ..

إن صانعي السياسة في الشرق والغرب – وغالبيتهم من الاساتذة المتخصصين في الدراسات الإنسانية والاقتصادية والسياسية – يدركون عن يقين ، الباعث الأكبر لتحركات الشعوب الاسلامية في قديمها وحديثها ، لكن هذه الحقيقة – للأسف – قد غابت عن غالبية مفكرينا وصانعي القرارات في الأمة الاسلامية ..

وفي ايجاز ، هم يعتقدون أن ضرب العقيدة الاسلامية ، بشتى الوسائل والأساليب، هو الطريق إلى سيطرتهم علينا، واستغلالهم لثرواتنا .. هذا بالإضافة إلى « عقدة الصليبية » التي ما زالت مهيمنة على تصرفات الكثيرين منهم ..

ثالثاً : والعدو يدرك أن لشعوبنا تطلعات وآمالاً وأهدافاً ، وأننا نريد أن نعيش عصرنا بكل منجزاته وتطوراته ، ولهذا كان إدراكه لأبعاد هذه القضية الحساسة إدراكاً

ينطوي على كثير من الخبث والدهاء ، لقد أغرقنا بالسلع الاستهلاكية ، وسمح لنا بالصناعات الخفيفة التي لا تؤثر في موازين القوى بيننا وبينه ، وفتح لنا آفاق التعلم النظري ، لتخريج طوائف من الموظفين المكتبيين ، وعدد مناسب من المتخصصين في مجال الخدمات كالطب والهندسة والزراعة ، ووضع حدوداً لتلك النهضة التعليمية ، بينما وضع العديد من العقبات في مجال التصنيع والتكنولوجيا ، حتى نظل دائماً عالة عليه في احتياجاتنا للآلات الحديثة والسلاح ، فلم يكن من المعقول أن يحيلنا إلى دول صناعية ، تنافسه في الأسواق العالمية ، وتسد الطريق أمام صادراته ونفوذه ... وهكذا أخذنا من الحضارة قشورها ومظاهرها ولم نتعمق جوهرها ، أو نشيد الأسس الفعلية التي تنهض عليها ..

رابعاً : لا يخفى على العدو أن « المثقفين » هم الفئة التي لها قوة التأثير الهائلة في مجتمعاتنا ، سواء كانوا مثقفين تقليديين أو محدثين ، ولذلك أغرقهم في المتاهات الفكرية ، والتناحرات الحزبية ، ولقنهم أن الحياة العصرية تتعارض مع المثل والقيم الروحية ، وأن المادة هي أساس التطور والحضارة ، وأن العلم الحديث ، والفن الجديد هما جناحا التمدن والتحضر ، ولا تنس أن تتلمذ الرواد الأوائل على فلاسفة الغرب قد ترك أثراً بعيد المدى في اتجاهات المفكرين لدينا ، فلم يكن

غريباً أن يعلن الدكتور طه حسين في كتابه الشهير « مستقبل الثقافة ... » : أننا لكي نتقدم وننهض لا بـد أن نأخذ الحضارة الغربية بكل ما فيها .. ولم يكن غريباً أيضاً أن يحمل « سلامه موسى » راية العلمانية ، ومحاربة الأديان ، كما أن عدداً من علماء الدين أنفسهم قد قدم وجهات نظر خاطئة وخطيرة تتعلق بالبناء الفكري للنظام الاسلامي ، وهل ينسى أحد ذلك الكتاب الشهير الذي ألفه خالد محمد خالد تحت عنوان « من هنا نبدأ » وكان له صدى كبير في مختلف الاوساط .. والعجيب أن خالد محمد خالد يأتي بعد ثلاثين عاماً ، وينشر مقالاً في جريدة « الأخبار » القاهرية يعتذر فيه عن ذلك الكتاب ، ويعترف صراحة أن الآراء التي وردت في كتابه ، كانت نتيجة لتأثره بكتابات بعض المستشرقين ..

لقد نجح العدو في حملة « التشكيك » الكبيرة التي شنها ضد مبادئنا وتاريخنا وتراثنا ، والتي سماها البعض « بالغزو الفكري » .. وفجأة نظرنا حولنا فإذا الفنون مستوردة السينما.. المسرح.. الأدب..الرسم.. الشعر.. تلك الأدوات الفنية كلها غطت حياتنا بأساليبها الغربية الغريبة ، وأثرت في سلوكنا ومناهج تفكيرنا وتقاليدنا تأثيراً بالغ الخطورة .. حتى ملابسنا ، وطراز بنائنا ، وأحاديثنا اليومية ،

والإتيكيت .. ومعاملة الأبناء والآباء والنساء .. وامتلأت مكتباتنا بمؤلفات مترجمة غربية وأمريكية عن العلاقات الجديدة ، والزواج المثالي ، وليلة الزفاف ، وقصص ديكنز والبرتومورافيا وفرنسوا ساجان وسارتر ... حتى أعلام الفكر الإسلامي كابن سينا والغزالي وابن خلدون وغيرهم ، أخذنا نحشو مؤلفاتنا عنهم بمنقولات من التحليل والدراسات الاجنبية المغرضة ، وكأنهم « خامات » من المعادن استوردوها – أو أخذوها منا – ثم صدروها الينا مصنّعة جاهزة .. ترى أي جهد يمكن بذله لتنقية ثقافاتنا وتراثنا الفكري من هذه الأخلاط الهائلة التي دخلت كل رأس ، وسيطرت على كل بيت ، وهيمنت على كل فكر .. إن حركة التحرير الكبرى يجب أن تنطلق من هنا .. لا بد من تحرير تراثنا من كل ما شابه من أدران وأوشاب وسموم .. إنها جريمة قتل مع سبق الإصرار والترصد لأية دعوة وليدة، تريد أن تبعث بصيحة الخلاص من القيود والأوهام ..

وليس معنى كلماتي هو الرفض المطلق لكل جديد، أو التنكر لكل منجزات الحضارة ، والانغلاق على نفوسنا ، ولكن لنأخذ بحذر ، ونطبق عن فهم ، ولنناقش بحرية ووعي ...

إن الضربات التي كيلت لحركات البعث الاسلامي ثبت

بالدليل القاطع أن أصابع اجنبية كانت تعدها وتوجهها وتخطط لها ، وهذا أمر يحتاج – في وقت آخر – لتقديم الأدلة والبراهين والوثائق .

خامساً : إن خطر « التجميع » الإسلامي يحمل أكبر تهديد للمخططات الصهيونية والاستعمارية، ولذا كان من الضروري أن يهتم واضعو تلك المخططات ببذر بذور الفتنة والشقاق بين الاخوة والأشقاء ، ومن ثم بثوا شعارات الاقليمية والعنصرية، والتعصب الديني، ومشاكل الحدود، والنزاعات الحزبية والفكرية ، ونشروا الإشاعات والدعاوى الكاذبة حول أية شخصية بارزة ، أو أي تجمع مخلص ، كي يلوثوا سمعته ، فينفضّ الناس عنه ، ومن استعصى أمره ، فهناك التصفية الجسدية ، أو النفسية ، وهكذا انهكت قوانا في تناحرات طائفية أو حزبية ، وبددت إمكانياتنا الإقتصادية في حروب محلية تافهة ، والعدو يقف بالمرصاد ، ينتظر فرصة الإنهيار فينقض بكل قوته ، مدعماً بالتأييد العالمي المشبوه ، كي يضرب ضربته من آن لآخر .. تلك الهزائم المتلاحقة ، قد أورثت جيلنا العديد من صفات اليأس والألم واللامبالاة .. وكان طبيعياً أن يكون ذلك الفساد طريقاً للشرور والضياع والملل .. ثم نظر المحايدون من شرفاء الرجال في انحاء الأرض إلينا .. فماذا وجدوا ؟؟ وجدوا

التمزق والعشوائية والانفعاليـــة والتشتت الفكري ، والفلسفات المتضاربة، والنكسات المتتالية، والسفه الاجتماعي والإقتصادي ، وإلا هل في استطاعة أي رئيس من رؤساء الدول الأجنبية أن يتخذ منا موقفاً مضاداً ، إذا علم أننـا يد واحدة، وأن ضربتنا موجعة، وأنه سوف يخسر بسببنا أضعاف أضعاف ما يجنيه من عدونا ؟

سادساً : إن عالم اليوم ينظر إلينا على أننا أمـــة لا تستطيع « توظيف » إمكانياتها .. وهذا حق، فإن لدينا الإمكانيات الهائلة التي يمكننا أن تقلب المواقف السياسية العالمية رأساً على عقب، لكن « توظيف» الإمكانيات فن وعلم، ثم «عمل محسوب » بكل دقة ومهارة، فهل يستطيع العالم أن يعيش ويتحرك دون سمائنا وبحارنا ؟؟ أيمكنه أن يستمر دون نفطنا ومعادننا ؟؟ وهل تنتعش معاملاته التجارية والسياحية دون أسواقنا؟؟ وهل في إمكانه أن يتجاهل مئات الملايين من المسلمين المنتشرين في كل أرض ؟؟ إن بضعة ملايين من الصهيونيين قد استطاعوا – فعلاً – أن يغيّروا سياسة أكبر الحكومـــات ، بالتهديد تارة ، وبالإغراء تارة أخرى ، وبالإقناع بأن مصالح الكبار ترتبط بقوة اسرائيل وتأييدها تأييداً مطلقاً .. بضعة ملايين من اليهود ، في ظـل فلسفة محكمة ، وفي ظل عقيدة غريبة عفى عليها الزمن ، ولغـة

منقرضة ، وأفكار أسطورية خرافية، استطاعوا أن يصلوا مرحلياً إلى أهدافهم .. المهم أنهم استطاعوا أن يفهموا العالم من حولهم، وأن يدركوا أبعاد العلاقات الدولية المتشابكة، ومن ثم فهمهم العالم ، أو خاف منهم ، او اقتنع بمنطقهم .. ومع هذه « الثقة » التي سادت بينهم وبين كبريات الدول ، إلا أنهم حاولوا أن يمسكوا بأيديهم شيئاً آخر غير التأييد من القوى المؤثرة .. وأعني به قوتهم الذاتية.. أو الصناعية.. فدخلوا مجال التصنيع ، وعلى رأسه السلاح .. حتى السلاح الذري ..

فهل عالمنا الاسلامي الشاسع أقل مالاً أو عتاداً أو بشراً أو أرضاً من هؤلاء الصهيونيين ؟؟ وهل بلادنا عقمت عن إنجاب العقول والمهارات والكفاءات في كل مجال من مجالات الحياة ؟؟ وهل العشوائية واللامبالاة والجهل والظلم والتحلل الديني هي قدرنا ؟. ما أسهل الاجابة، وما أصعب التنفيذ !!

يقول رسولنا ﷺ في حديث ما معناه « تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبداً : كتاب الله وسنتي » .

كلمات معدودة، لكنها جماع الخير والصدق والنجاة ..

كلمات قليلة ، صنعت أروع حضارة عرفها الانسان عدلاً ونوراً وحرية .. ولا ملجأ من الله إلا إليه ..

والآن .. هكذا نظر إلينا العالم .. ونحن ؟؟ كيف ننظر الى العالم وإلى أنفسنا ؟؟ هذا ما سوف نحاول الإجابة عليه في الصفحات التالية إن شاء الله ..

كيف حلّت الكارثة ؟؟؟

كان قدر الأمة الاسلامية أن تقع فريسة الضعف والتخلف والجهل ، وهذا ما أتاح الفرصة لقوى الاستعمار العسكري والاقتصادي والغزو الفكري أن تسيطر عليها ، وتهيمن على مصائرها ، وقد أوضحنا فيما سلف ، كيف كانت تنظر تلك الجحافل الشريرة إلى الشعوب الاسلامية ، والآن نحاول الاجابة على السؤال الآخر ، كيف تشكلت نظرتنا الى تلك الأمم الصناعية الكبرى التي قدمت لامتلاك مصائرنا ، واستغلال ثرواتنا وإمكانياتنا ، وكيف كانت نظرتنا الى أنفسنا ؟؟

تجارب مريرة :

إن شعوبنا كانت لها تجارب مريرة مع ما نسميه بالعالم المتقدم أو المتمدن ، ففي البداية تصدينا لحركات الغزو الشامل بكل ما نستطيع من مقاومة وتضحية ، على الرغم من قلة

العتاد ، والمال ، والخبرة الحديثة ، والفهم الشامل ، لكن رد الفعل لدى العدو كان عنيفاً رهيباً ، فسفك الدمـاء ، وفرّق الجموع ، وساق الأبطـال الى أعواد المشانق ، أو زج بهم في ظلمات السجون ، وحاربهم في أرزاقهم ، وأملى عليهم شروطه ، ومزق دولة الخلافة ، وأحالنا الى دويلات صغيرة شبه منعزلة ، وداس على كل مقدسات الشرف والحرية والكرامة ، والعجيب أننا عندما قرأنا تاريخ تلك الشعوب الغازية ، وجدنا دساتيرها تحفل بالكثير عن الحريات العامة ، وكرامة الإنسان ، وعن العدالة والمساواة ، والإخـاء الشريف الذي يجمع الناس تحت لوائه ، برغم اختلاف الألوان والعقائد ، وكان البون شاسعاً بين ما نقرأه عنهم ، وبين ما يفعلونه بنا ، وما نعانيه من شقاء واستعباد ووحشية ، حتى لكأن الحرية والعدل من حق شعوبهم ، والعبودية والاستغلال والقهر من حق شعوبنا . . وإزاء هـذا التناقض المريع .. كانت نظرة المسلمين الى هؤلاء الغزاة نظرة حقد وغضب وسوء ظن ، على طول الخط ، وهـذه نتيجة طبيعية لكل المقدمات التي سبقتها ، غير أن مشاعر الحقد تلك لم تتبلور في حركة عقيديـة موحدة شاملة ، تنطلق في وعي وإدراك وتصميم .. بل تنوّعت المدارس الفكرية السياسية في كثير من الأحيان ..

اتجاهات ثلاثة :

وظهر من المفكرين ، بمرور الوقت ، طائفـة تقول : ان

المعركة بيننـا وبين العدو هي معركة بين الاسلام والصليبية المتعصبة ، واعتبرت الأمر جهـاداً مقدساً ، أو فرضاً على كل مسلم . وكان هـذا التفسير له خطورته الكبرى على مصالح الاستعمار ، واستقراره في أرضنا . والحق يقال أن علماء الاسلام المخلصين وتلامذتهم والمؤيدين لهم ، قد تصدوا في مختلف الأقطار الاسلاميـة لزحف الغرب ومكائده ، فالثورات اندلعت من الأزهر تباعاً إبان الحملة الفرنسية وحملة فريزر ثم ما أتى بعدها من جيوش ، كما تصدى الجيش الاسلامي في الهنـد للقوى الاستعمارية سنوات طويلة ، وحدث نفس الشيء في السودان وليبيا والجزائر وعمان والعراق والشام والمغرب العربي وغيرها ، ولا شك ان هذا التيار الديني لم يكن لديه شعار سوى الجهاد المقدس ، ولم يفت النابهين منهم أن المعركة بالسلاح التقليدي غير كافيـة ، ومن ثم كانت خطتهم هي العودة الى منابع الدين ، وتربية الاجيال على مبادئه السامية ، والأخذ بقدر الاستطاعة بالأساليب المستحدثة في العلم والإعداد للمعركة ، وترك ما عدا ذلك من « التقاليع والبدع » الغربيـة ، التي تدمر الأخلاق والعقيدة .. هذا التيار لاقى الكثير من العنت والاضطهاد ، لا من الغزاة وحدهم ، ولكن من المعارضات المحلية ، التي رمتهم بالجمود والرجعية في كثير من التصرفات والآراء .

أما الطائفة الثانية ، فهي طائفـة المنبهرين بالتفوق العلمي

والتكنولوجي للغرب ، وهؤلاء اقتنعوا بأن الطريقة الوحيدة للخلاص هي الأخذ بكل ما في الغرب من نظم ومناهج، ومن ثم نستطيع – على المدى الطويل – أن نهزمه بنفس سلاحه ، وأن قدراتنا الحالية غير كافية لتحقيق نصر حاسم في تلك المعركة الخطيرة الغير متكافئة ، وكان الرأي عند هؤلاء هو عقد هدنة – ولو مرحلية – مع العدو ، والاستفادة من علمه وخبراته ، بل والتعاون معه ، حتى يفيد ونستفيد ، بدلاً من إنهاك قوانا في معارك غير مضمونة النتائج، وهؤلاء رحبوا بمعاهدات التحالف والصداقة الشكلية ، واتخذوا الأنماط الغربية منهجاً وسلوكاً وفكراً ، بل وتمادى بعضهم في آرائه ، ورمى ما عداها من الآراء بالتهور والجهل والخرق، وألصق بأصحابها تهمة الرجعية والجمود ، وانبرى يهاجمها بشدة وعنف بالغين ، مما أدى الى خلق جبهات متناحرة متخاصمة على الصعيد المحلي ، واستطاع العدو أن يستغل هذه الفرصة ، فغذى تلك الخلافات ، وتحول المكافحون من معركتهم مع العدو الى التصادم مع إخوانهم في العقيدة والوطن ، وسكتت لغة المفرقعات والمدافع ، وأصبحت الكلمات والتراشق بالألفاظ والشعارات هي السلاح الجديد .. وتطرف هؤلاء المنبهرين بالغرب ومنجزاته تطرفاً ربما يفوق ما أبداه أصحاب الاتجاه الأول من حماسة وتصلب..

أما الاتجاه الثالث فهم فئة المرتزقة .. عار كل عصر .. ووصمة كل شعب .. والمعوق لكل تحرر ، وأعني بهم تلك الفئة التي

ارتبطت مصالحها وحياتها ومصيرها ببقاء الأوضاع الاستعمارية كما هي ، لأن العدو أعطاهم المناصب والمال ، وقدم لهم الحماية اللازمة ، ووضعهم في القمة ، كي يصنعوا القرارات التي تتفق وهواه ، وفتح لهم أبوابه على مصارعهـــا ، وسودت صفحات الصحف والمجلات والكتب عن أمجادهم ووجاهتهم « وخدماتهم الوطنية الجليلة » ، وأغدق عليهم الألقاب الفخمة ، وجمـــع حولهم طائفــة من المنتفعين أو ملتقطي الفتات المتساقط من الموائد ، وأصبحت لهم الضياع والملايين والنفوذ ، فساهموا في صنع الفكر المسموم ، والفنون الزائفة ، وجعلوا من الانحلال مدنيــة ، ومن الفسوق والمروق حريـــة وعصرية ، ومن الاحتكارات عصامية وتفوقاً اقتصادياً ..

وكان ذلك سبباً في انتهاك الدساتير المصطنعة القاصرة ، وجرت الى الكثير من الانحرافات والحركات السرية والاغتيالات ، وإلى أساليب العنف الغير مسؤولة .. هذه الاتجاهات الثلاثة أفرزت صراعــات وتناقضات مهولة ، عطلت مسيرة الكفاح لسنوات طويلة ، وبددت قوانا في متاهات مظلمة .

إن تلك النظرات المختلطة الى العدو وتقييمه ، خلقت رأياً عاماً مهلهلاً ، ووضعت بذور المدارس الفكرية الحديثة التي تلت ذلك من يمينية ويسارية وليبراليـــة وفوضوية ، وشرقيــة وغربية .. الخ .

الوطنيون :

ونبع من ذلك كله ينبوع وطني يتفجر قوة وحماسة ، هذا الاتجاه ، نظر الى الوضع القائم ، وإلى الامكانيات المتاحة ، ومدى القدرة التي يمتلكها العدو ، فحدد أهدافه في تخليص الوطن (القطر) من الاستعمار ، ولم يركز إلا على « المشكلة السياسية » وحدها ، ولا ننكر أن هذا الاتجاه ، استطاع أن يستقطب حوله غالبية من أبناء كل دولة ، ونحا جانباً حقيقة « الكيان الاسلامي » الواحد ، و « الكيان العربي » الواحد.. مع أن جموع الشعوب كانت تحلم دائماً باللقاء الاسلامي الكبير ، وبالتضامن العربي القوي ، ووجدت هذه الجموع من بعض المفكرين المخلصين ، من يعبر عن أحلامها ، ويواصل دعوته في شجاعة وإنكار ذات ، على الرغم من المعاناة والاضطهاد الذي لاقاه ، وكان التيار الوطني – برغم اخلاصه وحسن نواياه في كثير من الأحيان – تأكيداً للحدود والفواصل والنعرات التي غذاها العدو ، ولا ينفي هذا الاتهام ، أن زعماء الحركة الوطنية ، في أي قطر عربي أو إسلامي ، قد شردوا ونفوا وسجنوا ، ولاقوا الكثير من الأهوال ، لأن العدو لم يكن يقصد من تمزيقنا إلا بقاء سيطرته ، لكن هؤلاء الوطنيين ، أرادوا بالفعل اجتثاث جذوره ، وتحقيق الجلاء التام والحرية لشعوبهم.

ومن الأمانة أن نقرر أن هذا « التجمع الوطني » قد جذب

إليه العديد من الشخصيات الاسلامية والمسيحية، ومن التقليديين والمحدثين، وبعض رجال الفكر والمال والاعمال، مما حقق له غالبية كبيرة، أمكنه من خلالها أن يعقد المعاهدات، ويصل الى كراسي الحكم، وينال قدراً من الحقوق استخلصها بإصراره وكفاحه من فم الأسد، برغم بقاء الكثير من الامتيازات الاجنبية، والقيود السياسية في علاقاتنا الدولية، وبعض القواعد العسكرية، والالتزامات التجارية والاستثمارية، واستغلال الثروات الطبيعية، هذا الأمر – وإن كان قد حل جانباً من الإشكالات السياسية – إلا أنه أبقى الصورة الاجتماعية على ما هي عليه، أو أحدث فيها النعرات البرجوازية، ومن ثم لم يستطع الجمهور أن ينال العدالة الاجتماعية والسياسية التي كان يحلم بها .. ودخلنا عصر الأحزاب التي نبتت في ظل السيطرة الاستعمارية، وتفرعت عنها الصراعات والأنانية، وضياع الكفاءات، وصعود المهرجين السياسيين، وتفشت الرغبة الجامحة في الوصول الى الرخاء المادي بأقصى سرعة، وبأي طريق، وانعكس ذلك كله على نظم التعليم والاعلام والفنون والمدارس الفكرية، ولم يكن هذا الاستقلال « الإسمي » أو الزائف إلا ستاراً يخفي وراءه العديد من الكوارث التاريخية . . وأبرزها مجيء « إسرائيل » على الساحة العربية والدولية ..

الصدمـة :

لم يكن مجيء الصهيونية للتمركز في أرضنا العربية حدثاً مفاجئاً وإن سبب لنا صدمة .. كان تمزق الصف العربي بفعل المكائد الاستعمارية منذراً بما سيحدث ، وكان الشتات الفكري عرضاً لمرض سرطاني خبيث ، وكان التنكر للقيم الاسلامية الخالدة افتئاتاً على حق الله وحقنا في الحياة الشريفة الكريمة ، وهنا أدرك الوطنيون في كل قطر ما وقعوا فيه من خطأ جسيم ، وانحسر الغطاء عن أعين السياسيين والمفكرين الضالين ، لكنهم للأسف توهموا أنهم قادرون على إلقـاء اسرائيل في البحر ، وعندما رأوا أن الأمر جد لا هزل فيه ، وأن القوى الاستعمارية الضالعة تؤازر اسرائيل ، وتمدها بكل ما تحتاج إليه ، وأن العون يأتيها من الشرق الأحمر والغرب المتحالف معنـا سواء بسواء ، أدرك عقلاؤهم أن الكارثة قد وقعت . . فارتفعت الأصوات يا عرب ... يا أبناء الاسلام .. يا أحفـاد أبي بكر وعمر وصلاح الدين.. يا .. يا.. وأصبح اللقاء العربي والاسلامي ضرورة تفرضها الوقائع المريرة ، وهبت الشعوب العربيـة ثائرة .. وهبت الأقلام ، واستيقظت الجامعة العربية من غفوتها ، وعقدت المؤتمرات ، وكان الاجمـاع العربي في تلك الفترة « صورة » مشرفة ، لكن كيف النصر ، وقواعـد العدو الاستعماري مـا زالت مرتكزة في بعض أقطارنا ، وحليف اسرائيل هو الذي يبيع لنا السلاح ؟؟

وبرز في هذا الوقت نداء الجهـاد الاسلامي ، وانطلقت القلة المؤمنة كمتطوعين ، يبذلون النفس والنفيس في معركة من أقدس معارك التاريخ الاسلامي وأشرفها ، ولقي هذا التيـار المخلص الكثير من التأييد الشعبي في مختلف الأنحـاء ، وحقق بطولات لم يكشف عن أغلبها النقاب حتى الآن ، وتلاحم أبناء مصر والجزيرة العربية والمغرب العربي والعراق والشام والسودان والاردن وغيرهم من الشعوب غير العربية ، على ساحة المعركة ، في إلفة من نوع عجيب ، ومن يريد المزيد فليرجع الى مذكرات قادة الجيوش العربية الرسمية في تلك الفترة ..

كان التيار الاسلامي دائماً ، يؤمن أنه لا أمـل في وعود الاعداء أو اخلاصهم ، وأن الحل الأمثل هو العودة الى كتاب الله وسنة نبيه ، ورفع راية الجهـاد المقدس ، والاستعانة بالامكانيات الحديثة في مجال العلم والتكنولوجيا ، دون إهدار للقيم الروحية العريقة التي صنعت تاريخنا وحضارتنا ، وجعلت من المبادىء الرائدة حقـاً مشاعاً لبني البشر أجمعين ، قويهم وضعيفهم ، أسودهم وأبيضهم ، مسلمهم وصاحب اي دين آخر ، ولم يجعل من تلـك المبادىء حكراً على شعب دون شعب ، او يجعلها حقاً مكتسباً للمنتصر وحده ، وكان التيار الإسلامي — برغم ما لاقى من صعوبات واهوال — واثقاً من نصر الله متى كان « الالتزام الإسلامي » حقيقة واقعـة « إن تنصروا الله ينصركم ويثبت اقدامكم » وكان الأمل — وما زال — في حشد اسلامي

على امتداد رقعة العالم الإسلامي كله .

لكن ، هل كان في الإمكان ان تترك الصهيونية والاستعمار والمطامع حركة المد الإسلامي الزاحف كي تؤدي دورها ؟؟

وحتى لو لم يجب « رستو » رجل البيت الأبيض في عهد جونسون على هذا التساؤل فإن الجواب معروف سلفاً ، لكل ذي عقل ، اعني لكل ذي ضمير شريف .

حَضارَةُ الرّحمن .. وَحَضارَةُ الشَيْطانْ

زعم فلاسفة الإلحـــاد والمادية الجدلية ، كما زعم غيرهم من الوجوديين وأتبـــاع الفلسفة الوضعية ، أن الأديان جاءت لزمان ومكان معينين ، كغيرها من المذاهب الاصلاحية التي تذيع أفكارها في هذا القطر أو ذاك ، كما عللوا ذلك بأن لكل عصر واقعــه وظروفه الخاصة ، وأوضاعه الاجتماعية والثقافية والاقتصادية المتغيرة ، وهذه العلل والأسباب كلمة حق أريد بها باطل كما سنرى، ومن ثم حصروا الأديان في حيز العلاقة بين الفرد وربه ، وهكذا أصبحت مجرد صلوات تتلى ، وطقوس تؤدى ، ومناجاة قلبية ، وأطلقوا عليهـا « الجانب الروحي » في حياة الإنسان ، ولم يؤمنوا جميعاً بهذا التصور ، فبعضهم رفض أيضاً ذلك الجانب الفردي – الإلهي ، وجعـــل من العلم دين العصر الجديد، وجعل من العلماء أنبياء ورسلاً، أو كالأنبياء والرسل.. وقدموا الأدلة على تصوراتهم المريضة تلك ، وقالوا إن منجزات

العصر الذي نعيش فيه أصدق برهان لما يقولون .. بل ووصفوا « الروح » بأنها انعكاسات لواقع مادي يؤثر في الكيان الإنساني ككل ، مع أن « .. الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً » ..

وسوف أحاول مناقشة هذه القضية التي تبدو في ظاهرها عويصة معقدة ، بقدر غير قليل من البساطة والوضوح ، دون لجوء إلى مصطلحات غامضة ، أو نظريات فلسفية صعبة ، ويقيني أن أية دعوة لا تدخل إلى قلوب عموم الناس وعقولهم هي دعوة قاصرة ، تنأى عن الواقع ، وقديماً قال رسول الله : « أمرت أن أخاطب الناس على قدر عقولهم » لأن القضية أساساً قضية هؤلاء الناس ، وما يصلح حالهم ، ويعالج عللهم النفسية والإجتماعية ، ويرقى بمستوياتهم العقلية والروحية ، ولن يحدث ذلك ، إلا إذا كان الطريق واضحاً ، والعلاقة بين الداعية وجمهوره صريحة مستقيمة ، متألقة بالصدق والوفاء والإخاء وقوة المنطق.. وما أكثر الدعوات التي نرى فيها فجوة سحيقة بين التنظير والتطبيق ..

والآن ماذا كانت سمات الحضارة الإسلامية ؟؟

ثم ما هي سمات الحضارة المعاصرة ؟؟

وما هي العلاقة بين هذي وتلك وواقع الإنسان ؟؟

كانت الحضارة الإسلامية ذات سمات عديدة ، ترتبط بجعل الحياة الدنيا عالماً من المحبة والسعادة والإخاء الإنساني، وربطت العمل الدنيوي بالجزاء الأخروي ، ولم تنس الضوابط التي تحكم العلاقات الفردية والجماعية والدولية .

وأولى الأسس التي قامت عليها هذه الحضارة أنها ربانية .. فالله وحده هو المشرّع، انطلاقاً من أنه خالق الكون، وصاحب التصرف المطلق فيه ، والخالق أدرى بطبيعة المخلوق عضوياً وعقلياً ونفسياً واجتماعياً ، وأدرى بما يصلح هذا الكون أو يفسده ، وهو سبحانه يعلم أزلاً أن الانسان مهما كانت قدراته الذهنية والجسدية ، ومهما كانت مهاراته وإمكانياته ، فلن يستطيع أن يتجاوز حدوده ، ويفتئت على حقوق الله في التشريع والتقنين ، ولو فعل الانسان ذلك لكان مخطئاً في حق الله وحق نفسه ، فالانسان كائن محدود العمر ، محدود التفكير ، محدود القدرات ، يتأثر عفوياً بأهوائه ونزواته وبالأمراض التي تصيبه ، والجو المحيط به ، وحالات الفشل والنجاح التي تلازمه في حياته ، والهرمونات التي قد تضطرب موازينها في جسده ، فتتغير من سلوكه وميوله ، الانسان متحيز بطبعه ، أياً كان لون هذا التحيز ودرجته ، وقد يصل ذلك التحيز لدرجة خطيرة من التعصب الأعمى .. أما الله سبحانه وتعالى فهو المتصف بكل كمال ، المنزه عن كل نقص ، العليم بظواهر الأمور وبواطنها ، علمه العظيم يغطي كل الأزمنة

والأمكنة ، ومن هنا أعطى نفسه حق التشريع ، وهكذا نزلت الكتب السماوية ، والشرائع الإلهية ، وكان القرآن الرسالة الشاملة الكاملة الى أهل الارض قاطبة .. فهل يشك عاقل في هذا الأمر ؟؟

وثاني الأسس التي قامت عليها حضارة الإسلام هي كما قال امير الشعراء :

الله فوق الخلق فيها وحده
والناس تحت لوائها أكفاء

بنيت على التوحيد وهو عقيدة
نادى بها سقراط والقدماء

ومن منطلق « التوحيد » قامت أمة واحدة ، تربطها الأخوة والعدالة والمساواة ، الله وحده هو الذي « لا يُسأل عما يفعل ، وهم يُسألون » ، وهكذا سقطت كل أوثان الشرك والخوف والتميز العنصري أو الطبقي أو الاجتماعي ، وإن لم تسقط المسؤوليات الملقاة على عاتق البشر ، كل في موقعه ، سواء أكان حاكماً أو محكوماً ، قائداً أو جندياً ، عربياً أو أعجمياً ، قرشياً أو حبشياً « والله لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطع محمد يدها » ، و « المسلمون تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم » . فالتوحيد له أثره الكبير على الفرد

والمجتمع ، إذ يضع الاطار الصحيح لأمة ، يعتز أفرادها بكرامتهم وانتمائهم للعقيدة التي هي الرباط الأسمى الذي يربط بينهم ، وهي الفيصل او الحكم الذي يحكم علاقاتهم وفي إطار التوحيد حُفظت للفرد إرادته وحريته ، وحُفظ للمجتمع كيانه الوثيق ..

وثالث هذه الأسس التي قامت عليها الحضارة الاسلامية، أن أمرهم شورى بينهم ، وهو قاعدة عامة ، كفلت حق أي فرد، مهما صغر شأنه ، أن يدلي برأيه ، وتقف امرأة وتعترض على رأي لعمر وهو أمير المؤمنين ، فيتبين وجه الحق ، ويرى أنها مصيبة ، فلا تأخذه العزة بالإثم ، بل ينصاع لأوامر الله ، وللمبادىء التي رباه عليها الاسلام ، ويعرف أنه بشر يخطىء ويصيب ، وأنه وإن كان في قمة المسؤولية ، فهو ملزم بأن يستمع لأي نقد ، ويستجيب للنصح ، فيهتف بأعلى صوته، وفي أقدس مكان ، وأمام جموع المسلمين :

« أصابت امرأة وأخطأ عمر .. »

ومن قبله يقول أبو بكر: « لقد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن رأيتموني على حق فأعينوني ، وإن رأيتموني على باطل فسددوني ، الصدق أمانة ، والكذب خيانة » .

بل إن الحديث الصريح الموجه من الله سبحانه وتعالى

لرسوله في كتابه الكريم ، إذ يقول جلّ وعلا « وشاورهم في الأمر ، فإذا عزمت فتوكل على الله .. » .

فهل في حضارتنا المعاصرة صورة أروع وأصدق وأكرم من تلك الصورة الخالدة ؟

والأساس الرابع لهذه الحضارة هو احترامها للعلم والعلماء ، كان الأسير في أيام رسول الله يطلق سراحه إذا علّم عشرة من المسلمين القراءة والكتابة ، وكان الأمراء والخلفاء والحكام يغدقون على المؤلفين والمصنفين ، بل إن المترجمين من اللغات الأجنبية الى اللغة العربية يجزل لهم العطاء ، وتوزن مترجماتهم بالذهب ، ولم تكن هناك أية قيود على البحوث العلمية ، أو العلوم التجريبية ، وبهذا أصبح للمسلمين الاوائل تراث ضخم في الرياضيات والطب والفلك والفيزياء والكيمياء والجغرافية والتاريخ والأدب وعلوم اللغة والفقه والتفسير والحديث ، والفلسفة ، وكانت هذه الفتوحات العلمية – بعد ترجمتها الى اللغات الأوربية – هي بداية النهضة العلمية هناك ، ولذا نرى أن تراث الفكر الاسلامي لم ينغلق على نفسه ، بل تآخى مع المعارف الانسانية من كل صقع ، فتألقت النهضة العلمية في العصر العباسي ، وبلغت شأواً عظيماً ..

والأساس الخامس لهذه الحضارة ، أنها لم تفرض سلطانها

على العالم المعاصر آنذاك بقوة السلاح والعدوان ، بل بقوة العقيدة ، وبالمثال الواقعي الفريد الذي قدمته للناس ، فرأوا فيها روح العدالة والإخاء والحب ، وكان عمر بن الخطاب يقول دائماً «تمنيت أن يكون بيني وبين الاعداء جبل من نار فلا يستطيعون عبوره ، ولا أصل إليهم » ولقد كان واضحاً أن حروب المسلمين ، إنما قامت لدفع عدوان واقع أو مرتقب ، ولفتح الطريق أمام البشر كي يسمعوا دعوة الله .. ولهم بعد ذلك أن يؤمنوا أو لا يؤمنوا « لا إكراه في الدين ، قد تبين الرشد من الغي » ولم يفعل المسلمون ما فعلته الزحوف الحمراء حينما أزهقت أرواح الملايين الذين رفضوا اعتناق مذهبهم ، وكتب التاريخ المعاصر مليئة بكثير من تلك المآسي ..

وهكذا عاش ذوو الأديان الأخرى في كامل الحرية والأمان ، بل إن بعض الخلفاء قد استوزرهم .. فانظروا اليوم ما كانت تفعله أوربا وآسيا وأمريكا والمانيا في الحروب التي اشتعلت في القرن العشرين وما قبله ، وتذكروا عمليات الإبادة التي شنتها الصهيونية على شعب فلسطين .. والمجازر البشرية الرهيبة هنا وهناك .. أي فارق عظيم بين حضارة الرحمن .. وحضارة الشيطان ..

والأساس السادس لحضارة الاسلام هو **الهدف** الذي ترمي إليه ، إن الحضارة المعاصرة ، تهدف الى الرخاء المادي

والسيطرة ، واقتسام مناطق النفوذ ، والتسابق في انتــاج الاسلحة المدمرة ، والعبث بمصالح الشعوب ، من أجل أن يبقى الكبار أو القوى العظمى في قمة الرخـــاء المادي والنفوذ ، واستغلال ثروات الضعفاء ولو أدى ذلك الى تمزيقهم أو إفقارهم أو إبادتهم .. أما حضارة الاسلام فكان رضاء الله هو الغاية ، « فمن كانت هجرته الى الله ورسوله ، فهجرته الى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته الى دنيا يريدها، أو امرأة ينكحها فهجرته الى ما هاجر اليـــه » ولذلك كانت الحرب في نظر الاسلام « جهاداً في سبيل الله» ولم تكن استعماراً واستلاباً لحقوق الآخرين في الحياة الحرة الشريفة ، ولم تغفل الغاية الربانية مطالب الحياة الدنيوية ، يقول الله في كتابه العزيز « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله إليك ، ولا تبغ الفساد في الارض ..» .

وكان الأساس السابع لحضارة الاسلام هو العدل الاقتصادي ، فالمال مال الله ، ونحن مستخلفين فيــه ، أي وكلاء عن الله في إنفاقه في أوجه الخير والمنفعــة ، وسد احتياجات المحتاجين ، واستثماره فـــيما يفيد ، وحرّم الاسلام الاحتكار والاكتناز والجشع والربا ، واستغلال الضعفاء ، ووضع لذلك كله الضوابط لحدود ، وفرض فرائض كالزكاة ، وفتح البــاب لكثير من التصرفات العادلة التي تهدف الى التوازن الاجتماعي ، وتحدّ من الصراع الطبقي ، وتمكن للمحبــة والتعاون والعطف والتراحم

« انفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » ..

وكان الأساس السابع لهذه الحضارة هو « الالتزام » بما جاء في كتاب الله وسنة رسوله من أحكام وشرائع وحدود وآداب، وكان ذلك الالتزام هو المحك الذي ينظر الناس من خلاله الى الحكم على الافراد ومدى صلاحيتهم أو فسادهم ، سواء كانوا في القمة أو في عامة الناس .

وكان الاساس الثامن هو إقامة العلاقات الأسرية والاجتماعية في ظل مفهوم واضح ينظم الاحوال الشخصية والميراث والزواج والطلاق ، والمعاملات المدنية والجنائية على نحو رائع لا لبس فيه ولا غموض ولا افتئات ، وأعطى للمرأة مكانة لم تحظ بها في فلسفة قديمة أو حديثة ، مراعياً في ذلك طبيعتها العضوية والنفسية ، ووظيفتها المقدسة في الحياة .

وكان الأساس التاسع لهذه الحضارة هو تقدير الفنون والآداب ، وإحاطتها بسياج من العفة والصدق والحرية ، بحيث تكون عامل بناء لا هدم ، ودافع ارتقاء لا سقوط ، وبذلك يتكون الوجدان الحي النابض بكل معاني النبل والإباء والرقة والتواضع والكرامة .

وكان الأساس العاشر هو واقعية المنهج ، وهي واقعية من نوع فريد ، واقعية لم تنحصر في بيئة من البيئات ، أو زمان من

الازمنة ، وإنما هي واقعية رحبـــة كبيرة تغطي ، كل الازمنة والأمكنة ، وتستجيب لطبائع النفوس وتطوراتها وصعودها وهبوطها ، واقعية تنشد الصورة المثلى ، أو الأمل الارفع ، كي يعيش الناس في رضى وسعادة ، ولم تكن أبداً ضيقة الأفق ، أو معصوبة العينين، أو منكرة للتطورات التاريخية والاجتماعية والثقافية التي تسود الحيـــاة عبر رحلة القرون .. ولقد كانت المدارس الفقهية والمذهبية في الاسلام صورة صادقـــة لتلك الواقعية المرنـــة ، فكان الاجتهاد وكان القياس وكان الاجماع، وكان .. وكان ، وكلها تنبـع من المصدر الحي مدى العصور .. من كتاب الله وسنة رسوله ، حيث لا ضرر ولا ضرار، وحيث الضرورات تبيح المحظورات ، وحيث يكون واضحاً دائماً ، إيجاد المجتمع الصالح الملتزم ، وحيث يكون الله دائماً من وراء القصد ..

وبعد .. هذا جزء من كل من سماة الحضارة الاسلامية .. بقدر ما سمح به المقام ..

وأخيراً ...

ماذا في حضارتنا المعاصرة من أهداف ؟؟

أتهدف الى أكثر من ذلك ؟؟

وهل استطاعت الفلسفة المعاصرة أن تحقق **فعلا** ما دعت إليه قولاً ؟؟

وهل نخاصمة الدين قد حققت السعادة والحرية والكرامة والرخاء للناس قاطبة ؟؟

وهل يصدق أولئك المفكرون الذين يزعمون أن الحلول القديمة لا تواكب الحياة العصرية ، ولا تلبي احتياجات الواقع؟؟

وأي قديم يقصدون ؟؟

أليس الأمر كله مأساة .. مأساة القرن العشرين ، الذي بهرته حضارة الشيطان .. فغفل عن حضارة الرحمن ؟؟

ترى أي مصير ينتظر هذا العصر ؟.

جحافل الغزو الفكري

الغزو الفكري هو أقسى أنواع الغزو على مدار التاريخ ، وهو أبعد مدى من الغزو العسكري ، فالاحتلال بالقوة الحربية مرهون بالإمكانيات العسكرية التي يملكها الغزاة ، ويرتبط بالتمزق والضعف الذي يعاني منه المعتدى عليه ، ويعتمد في كثير من الاحيان على مراكز القوى العالمية ، وما يطرأ عليها من ارتفاع أو انخفاض ، ومن ثبات أو تحول ، فإذا مال الميزان ، أو تغيرت معدلات القوة وإمكانياتها ، انهار الغزو العسكري على الفور ، وقد يزول في أيام قلائل أو سنوات ، حدث ذلك في موجات التتار والمغول وغيرهما.. ولذلك حاولت الزحوف الاستعمارية أن تربط وجودها بمؤثرات أخرى تجعل وجودها ضرورة ملحة ، ومن ثم ربطت بقاء سلطانها ونفوذها بعدد من المصالح الاقتصادية ، حتى تبقى الارض المحتلة في حاجة

ماسة الى وجودهم ، لكن الأخطر من ذلك كله هـــو الغزو الفكري .. فقد يزول الاحتلال العسكري ، وقـد تنمحي التبعية الاقتصادية ، لكن الذي يبقى أمده ، ويطول تأثيره وفعاليته هو الغزو الفكري.. لأنه يسيطر على العقول والنفوس، ويهيمن على الارواح والعادات ومناهج التفكير في الفن والسياسة والاقتصاد والتعليم ، وهكذا تستطيع أمة من الامم المتقدمة حضارياً أن تستعمر دولة من الدول ، دون أن يكون لهـــا قواعد عسكرية ، أو ترسانات أسلحة ..

ومن الملاحظ أن الدول التي أدركت أن الاحتلال العسكري وحده غير قادر على الحفاظ على مكاسبها ، بادرت ببث طلائع الغزو الفكري على الفور ، وأول شيء أدخلتـــه الى الدول المغلوبة على أمرها كانت الفنون وليس العلوم الحديثة ..

فالفن بطبيعته مجاله الوجدان ، والوجدان يؤثر في السلوك والعادات والاتجاهات الفكرية ، والقيم الروحيـــة ، ويُظهر العلاقات الفردية والاجتماعيـة بصورة جديدة ، قد تضاد تماماً تراث المغلوبين ومبادئهم وعقائدهم السابقة ، وهكذا جاءت في أذيال الغزاة صالات الرقص والموسيقى والتمثيـــل البذيء ، وروايات الجنس والصراع الإنساني الشاذ ، وأدب التمرد والسخرية من الاديان والقيم العالية . وجاءت صحافة الإغراء، ومطبوعات إشباع الغرائز ، ونشر الفضائح ، وأخيراً السينما

والمذياع وما لهما من تأثير بالغ الخطورة على الاجيال الجديدة ، وهكذا وفدت علينا فنون غريبة ، ولدت وترعرعت في أرض غير أرضنا ، وكان لنشوئها ظروف مغايرة تماماً لظروفنا ، ولم يكن لدينا في هذا الوقت الحصانة الكافية ضد هذه الأوبئة من الفنون والآداب ، لقد سحرتنا بجمالها وطرافتها ، ووجدنا فيها عالماً مثيراً من التسلية والجمال ، والانفلات من القيود الاخلاقية التي يحلم بها دائماً المراهقون والمحرومون ..

نحن لا ننكر دور هذه الفنون والآداب وأهميتها في حركة التقدم الحضاري ، لكننا نقول أن هـــذه الفنون تتركز على شيئين :

١ ــ الشكل ،

٢ ــ المضمون .

وكان من الضروري لنـــا أن نستفيد من هذه « الاشكال الفنية » الجديدة ، ونضع في إطارها ما يتفق وتراثنـــا وقيمنا الروحية ، ثم نرفض « المضامين الفكرية » الساقطة المدمرة ، والأفكار العبثية أو المادية البحتة ، والانحرافـات الأخلاقية والنفسية ، حتى نستطيـع الحفاظ على شخصيتنا ، كان يمكن أن نأخذ « الأشكال » ، ونضع فيها « المضمون » الذي يناسبنا، ويساعد على التحرر والخلاص من أغـلال الخوف والقهر والفقر

والجهـــل ، لكن للأسف بهرتنا البدع الجديدة المستوردة ، فأخذناها بحذافيرها ، بعد أن بهرنا التقدم العلمي وسلطان القوة التي يتزيا بها المحتلون لأرضنا ، وكان طبيعياً أن نقلدهم في أساليب حياتهم وتفكيرهم وسلوكهم .

ومن الاجحاف أن نزعم أن العدو حاول فقط أن يصبغنا بصبغته الفنية والاجتماعية وحدهما ، لقد أدخل إلينـا أيضاً العلم .. لكن أي علم ؟؟ أدخل لنا العلم النظري ، وحرمنا من التطبيق .. أو التكنولوجيا .. وهل للعـلم قيمة دون تطبيق وممارسة ؟؟ كما جعلنـــا العدو نحترم — أو نخاف القوة — التي يتمتع بها ، وفي نفس الوقت لم يكن من المعقول أن يتركنا ننمو ونقوى ..

ولم يقف الامر عند هذا الحد ، فقد سيطر المستعمرون على السياسة التعليمية عندنا ، مثلمـــا سيطروا من قبل على توجيه الاقتصاد والحكم والعلاقات الدولية ، والعلاقـات الاجتماعية ، ومن ثم رسموا مناهج التعليم بطريقة خبيثة ، تحقق أغراضهم في طمس الشخصية الاسلامية ، وتغيير اتجاهاتهـــا وأساليبها في الحياة ، وعزفوا لهم على وتر « الحرية الشخصية » ، والتخلص من كل قديم ، والأخذ بكل حديث ، والتركيز على المظهر دون الجوهر . فأصبحت « الشخصية الجديدة » لنا غريبة تائهة ، بلا جذور تربطها بالواقع ، ثم كانت هناك عمليـة الفصل بين التعليم

الديني والتعـليم المدني ، ونحى عن التعليم الديني معظم العلوم العصرية كالكيمياء والأحياء والفيزياء وغيرها ، مع أن علماءنا الأقدمين ، كانوا يجمعون بين العلوم الدينية والعلوم الدنيوية ، فجمعوا الفلك والرياضيات والطب والفلسفة وغيرهـا الى الفقه والتفسير والنحو والصرف ، وليس من رجال التربية والتعليم من يجهل سياسة « دنلوب » التعليمية ، وما أثير حولهـا من نقاش وبحوث ..

وعن طريق العدو القادم من الغرب والشرق انتقلت إلينـا قضية لم يكن لها وجود في تراثنا أو حضارتنا الاسلامية ، ألا وهي العداء بين الدين والعلم ، ولا شك أن صداماً مروعاً قد وقع في أوربا بين العلم والدين ، لدرجة أن الثورة الفرنسية كان شعارها « اشنقوا آخر ملك ، بأمعاء آخر قسيس » ، وأبعاد هذه القضية معروفة جداً للدارسين في أوربا ، فعندمـا بدأت بشائر عصر النهضة أو النهضة العلميـــة في أوربا ، وظهرت النظريات الجديدة التي تتحدث عـن كروية الارض ودورانها حول نفسها وقانون الجاذبية ، وألوان الحكم المختلفة ، ونظرياته المتباينة ، وقف رجال الدين في أوربا موقف المعارض للفكر الجديد على اطلاقه ، فسيق العلماء والمفكرون الى السجون أو الموت ، بسبب إثباتهم دوران الارض مثلاً ، وقد كان لرجال الدين تصوراتهم أو معتقداتهم الخرافية حول الكثير من ظواهر الكون والطبيعـــة ، ومن ثم حدث الصدام بين الفكر العلمي

الجديد ، والتصورات الكنسية القديمة ، وكان صداماً دامياً في كثير من الأحيـــان ، وانعكس ذلك كله على الفكر والفن ، وأصبح رجل الدين في أوربا رمزاً للجمود والقسوة والتخلف ، لكن الصورة في الحضارة الاسلامية ، وفي الفكر الاسلامي كانت مغايرة تماماً ، فـلم نقرأ في كتب التاريخ أن المشانق قد نصبت لجابر بن حيان وهو يبحث في الكيمياء ، أو لابن الهيثم وهو يضع النظريات الجديدة في عـلم الضوء ، ولا لابن النفيس وهو يكتب عن الطب والامراض ، ولا للفلاسفة الذين ساحوا في آفاق الفكر الانساني ، كان الدين وعـــاء للعلوم الدينيــة والتجريبية والنظرية ، ولهذا لم يحدث ذلك الانفصال بين العـلم والدين ، وبالتالي لم يكن هناك صدام مروع كالذي حدث في أوربا ، بل إن علمـــاء الدين – كما قلنا – في الشرق كانوا حملة الراية للتحرير والدعوة الى الأخذ بالعلم الحديث، مع الاسترشاد بكتاب الله وسنة نبيه ، حتى لا تنحرف الاجيال الجديدة عن الغاية التي من أجلها خلق الله الانسان ، وسخر له بسببها ما في الكون ، وجعله عزيزاً كريماً ..

أقول تسلل الى فكرنا وأدبنا صور شائنة عن رجـل الدين الاوربي ، وكان قلدنا الغربيين في هذه البدعة الخطرة ، فرأينـا رسوم « الكاريكاتير » تسخر من المتدينين ، والمسرحيـــات والتمثيليات تجعل منه مثلاً للنفاق والرياء والتدليس ، ووقع في

هذا الخطأ بعض كتابنا الكبار في رواياتهم وقصصهم ، ونسي هؤلاء وهؤلاء أن القضية لدينا ليست على هذا النحو ، وأن تقليد النماذج الادبية ، أو شخصيات الروايات كان عدوى من الآداب الغربية ..

أنا لا أقول أن رجال الدين عندنا كانوا ُمثلاً ُعليا في كل مكان وزمان ، فلا بد أن يكون في كل طائفة بعض المرضى والشواذ ، وهذا يحدث في كل جيل ، لكن التصور العدائي بين العلم والدين لا يوجد له أي مبرر تاريخي او واقعي في تراثنا وحضارتنا ، فرجل الدين أو الداعية الاسلامي كان دائما عنواناً للشجاعة والصدق ، وكان سباقاً للجهاد والتضحية ، وكان يواجه الحكام الظالمين ، ويحذرهم من الخروج على دستور الله . وكان مشهوداً له بالعزة والكرامة ، والعزوف عن مغريات الحياة ، وكان العلماء أكثر قرباً من قلوب الشعوب ، وهم أصحاب القيادة والرأي والتوجيه ، ويوم أن اضمحل دورهم بعوامل الفساد ، وظلم الساسة ، ومكائد الاستعمار ، فقدت القيم العليا للانسان ينبوعاً زاخراً للخير والصفاء والمحبة والعدل .. ويوم أن انصرف العلماء عن الجهاد والعمل الإيجابي ، واعتزلوا المعترك ، إيثاراً للسلامة ، أو اتقاء للفتنة ، أو يأساً من التصدي لتيار الفساد الجارف ، أو تجنباً للضغط المادي والارهاب المعنوي ، يوم حدث ذلك .. كانت النكبة التي بددت الشمل ،

ومكنت للعـــدو ، فاستطاع الغزو الفكري أن يبسط سلطانه ..

وللغزو الفكري أسلحته الفتاكة ، وأساليبه الملعونة ، فلنمسك مجلة من المجلات ، أو صحيفة من الصحف العربية ، ولندخل داراً من دور السينما ، أو نفتح مذياعاً أو نشاهد تليفزيوناً ، فإلى جانب الاشياء المفيدة ، والاخبار الهامة ، نرى التراث الاجنبي بكل ما يحويه من قيم وأفكار ، فالبطل طوال القصة السينمائية يتفنن في اصطياد المحصنات وغير المحصنات ، ويبرع في تصويب بندقيته ، ويبرز في مجال الكسب المادي ، وأفلام مصاصي الدمـــاء ورعاة البقر والهنود الحمر والرعب والجاسوسية تغطي على ما عداها من الاعمال القيمة ذات الفكر الأصيل ، ثم ظهور فتى العصر ، الذي يتمثـــل في الساخطين والرافضين والهيبيز والخنافس وغيرهم ، ماذا تريد هذه الفنون والآداب أن تقول ؟؟ وأيـــة قيم تريد أن تبثها ؟؟ وفنانونا وأدباؤنا يقلدون تلك الصور الزرية ، وهذه الرؤى المريضة ،ومن ثم أمكنهم أن يزيفوا واقعنا ، ويهدموا شخصية المسلم المميزة ، ويميعوا غاياته وآماله ، وسادت الفردية ، وسيطرت الأنانيــة ، وأصبح المطمح والأمل ، هو كسب مادي ، أو حيــاة رغدة جافة ، عارية من أشواق الروح ، خاوية من كل ما يملأ القلب ، ويشبع الوجدان ، بالمعاني الرائعـة ، ورحم الله شاعر الاسلام الفيلسوف إقبال إذ قال :

يئست فـلا أرجّي في أناسٍ
لهـــم فن كفن السامري[1]

سقاة في ربوع الشرق طافوا
على الندمـــاء بالكأس الخليّ

سحـاب مـا حوى برقاً قديماً
وليس لديــه من برق فــتيّ

هذا الغزو الفكري كان له — كما قلنا — أعمق الأثر في حياة شعوب العالم الاسلامي قاطبة ، فاستوردوا المذاهب السياسية ، واصبحنا نجـد أشباهاً لهتلر وموسوليني وستالين وغيرهم ، كما انتقلت إلينا مناهج الاقتصاد المتضاربة ، والمدارس الفنيـة المتنوعة ، وأصبح العالم الاسلامي الذي كان يسوده نظام واحد ، وعقيدة واحدة ، وكتاب واحد ، وإله واحد ، أصبح هذا العالم صورة للتنوع والتضاد والتنافر لا مثيل لها ، ففي كل بلد منهج للحكم ، وفي كل شعب أسلوب للحيـــاة الاجتماعية والاقتصادية ، بـل أصبح بعضها وكأنهـا أجزاء من أوربا في الظاهر ، بعد أن أخذت عن الحضارة قشورها ، ومن العـلم فتاته ، ومن الفن أرذله ، ومن الصناعة أتفهها ، ويكفي تحضراً أن نلوي الألسنة ببعض كلمات أجنبية ، ونرتدي الميني جيب ، وأحدث الموديلات للنساء ، ويموت متفرج بالسكتة القلبية وهو

(١) هو السامري الذي عاصر سيدنا موسى .

يشاهد هدفاً في كرة القدم يدخل شباك ناديه، بينما لم تهتز شعرة في جسده لسقوط مدينة القدس، أو غزو أوجادين ، أو الهجوم على أريتريا ، أو مذابح المسلمين هنا وهناك ، وأصبح ممثلو السينما وممثلاتها مثلاً عليا في سلوكهم وآرائهم والأزياء التي يرتدونها ..

وإذا كان الغزو العسكري قد عانى الكثير من بطولاتنا وتضحياتنا إلا أن الغزو الفكري لم يجد إلا القلة القليلة التي واجهته عن وعي وبصيرة ، وتصدت له في استماتة بالغة ، وكم عانت هذه القلة القليلة من الاضطهاد والتشويه والنكران، هؤلاء هم الابطال الحقيقيون الذين شردهم الاستعمار ، وحاصرهم في كل أرض ، ودبر لهم المكائد ، بل لعلهم عانوا من أبناء جلدتهم أكثر مما عانوا من بطش الاجنبي ..

والآن ، لماذا لا نطلق صيحة التحرير الفكري اليوم ، وننقي تراثنا وثقافاتنا وفننا من العناصر التي لوثته ، لماذا لا نعيد تقييم قوانيننا ودساتيرنا وما داخل حياتنا الاجتماعية والاقتصادية ؟؟

ولماذا لا نفسح الطريق أمام الأيدي المتوضئة ، والفكر الاسلامي المستنير ، كي يقوم بحملة التغيير الشاملة ، فنحرر أنفسنا وبلادنا من الغزو الفكري الخطير ؟؟

خيانات تاريخيّة .. وعلميّة !!

ما قرأت دراسة من الدراسات في الفكر السياسي أو الاقتصادي أو الايديولوجي في صحفنا أو كتبنا إلا وادعى كاتبوها ، بأنهم يتخذون الأسلوب العلمي منهجاً ، ويقيمون بنيانهم على أساس من المنطق ، وكأنهم بذلك يريدون أن يوهموا القراء بأن ما يكتبونه هو الرأي الذي لا رأي بعده ، وأنه لا مجال لمناقشتهم أو نقض النتائج التي توصلوا إليها ، وهو إيحاء كاذب بأن ما يقولونه ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .. حاشا لله ..

إن آفة الفكر في بلادنا اليوم هي وجود فئة من الكتاب تتحيز لأمر من الأمور ، ثم تحاول أن تعتسف الدليل والبرهان على صدقه ، ثم تقذف بنا تلك الفئة في متاهات التعريفات والمصطلحات ، وتستعير الأقنعة ، وتستورد القيم المهلهلة ،

وتبثها بين جيلنا ، فلا تزيدنا إلا ضلالاً وهواناً وحيرة ، زاعمة - برغم ذلك - أنهـــا تضع النقط فوق الحروف ، وتحدد القضايا تحديداً علمياً سليما ، وعلم الله ، انهم بذلك يخدمون مخططات العــدو من حيث يشعرون أو لا يشعرون ، ويمكنون للفرقة والشتات،ويمكنون للبلبلة والشك والانحراف في مسيرتنا التاريخية الحاسمة ، التي سوف تحدد مصيرنا إلى أجيال قادمة..

وعلى رأس هؤلاء الكتاب الدكتور لويس عوض ، ففي أهرام ١١ / ٥ / ١٩٧٨ يقول :

« .. القومية المحددة كلمة حديثة استخدمت لأول مرة عام ١٩٧٨ في قاموس اللغة الفرنسية .. وكلمة أمة أو قومية في اللغات الأوربية قديمها وحديثها تتضمن دائمــاً معني وحدة العرف أو السلالة أو الجنس مهما كان مختلطاً ... » وبعد شرح واستطراد يقول :

« لا نستطيع أن نتكلم اليوم عن الأمة العربية أو الوطن العربي إلا بعد زوال الحدود السياسية داخل العالم العربي، وقيام الدولة المركزية الواحدة ، التي يحكمها دستور واحد ، وقوانين واحدة ، وتكون صاحبة سيادة لا تتجزأ ، على كل أراضيها ومواطنيها ، وهذا لا وجود له في الحاضر ... وذلك مجرد أمل عند البعض ، ومن غير المعقول أن نستمر في التعامل مع

الاحلام أو الأماني تعاملنا مع حقائق الواقع ... إذن فلا مجال للكلام بأي معنى علمي ، وبأي معنى رسمي ، عن الأمـــة العربية ، وعن الوطن العربي .. »

ثم يستمر في تصوراته قائلاً : « ومع ذلك فنحن نتحدث عنها (الأمة العربية) كأنها حقيقة واقعة ، ونعلمها للتلاميذ في المدارس ... وهكذا نخلط الأماني بالواقع ونكذب على أنفسنا وعلى الغير .. » ويقول: « إن وحدة الثقافة (الدين واللغة .. الخ) وحدها غير كافية لتأسيس القومية .. »

إن الدكتور لويس عوض ينسى في طوفان « عنصريته » تلك الحقائق البديهية التي لا تحتـــاج الى قواميس انجليزية وفرنسية ولاتينية ، وينسى أن دعوته الى الانعزالية والتقوقع والشعوبية ، هي نفس الدعوة التي أعلنتها اسرائيل ، وروحت لها بعض الاقلام الاوربية والامريكية والروسية ، حين قالت ليس هناك ما يسمى بالأمة العربية إنها مجموعـــة من الشعوب المختلفة في طبائعها وأهدافها ووسائلها ، بل إنـــه في مقالته المتناقضة الافكار يدعو الى نفس الفكرة التي أعلنتها اسرائيل رسمياً حينما طالب « موشيه ديان » بذوبان الفلسطينيين في البلاد التي يعيشون فيها .. وينسى أن الامة العربية حقيقة واقعة برغم الحدود والقيود والمستويات الثقافية والاقتصادية المتباينة ، وهذا

أمر واقع في الحياة العامة ، في البلد الواحـــد، بل في الاسرة الواحــدة ، فاستقلال بعض أفراد الأسرة ببيت خاص ، أو بتميز اقتصادي أو ثقافي، لا يعني بالضرورة انفصاله عن أسرته، وانشقاقه عليها ..

أنا لا أدافع عن حقيقة وجود « الأمة العربيـــة أو الوطن العربي » ، وما أريد أن أقوله إن الكيان العربي موجود قبـــل أن تنشأ كلمة « القومية » ، وأن الدولة العربيـــة الواحدة ، والأمة العربية ، حقيقة تاريخية لا مراء فيها لمئات السنين ، وأن التمزق الذي انتاب هذه الأمة لم يحدث إلا منذ فترة تقــل عن مائة عام ، وإن الحكم من خلال نكسة طارئــة خلال القرن الماضي ، لا يمكن أن تطمس حقيقة أربعة عشر قرناً من الزمان، ألم أقل و كذلك العشرات من الكتاب المخلصين ، إن الغـــزو الفكري والدهــاء الصهيوني والصليبي والماركسي ، كان أخطر على واقعنا ومستقبلنا من حملات الغزو العسكري الضارية ؟؟

يوماً ما حاول لويس عوض أن يشوه تاريخ الكفاح العربي، حينما جعل من الخونة أبطالاً إبان الثورة ضد الحمـلة الفرنسية ، فقـــال إن « نقولا بابا زغلو » الذي كوّن طائفة من المحاربين لمساعدة الفرنسيين ، ومحاربة الأتراك ، قال إنــه من أبطال القومية ، وكان قوله ذاك مثـــار سخرية وأسف في صفوف الكتاب والمفكرين ، ويوماً آخر كان من فلاسفـــة القومية

العربية ، والدعوة العلمانية ، ومـا أكثر المقالات الطوال التي نشرها ، موجهاً سهامه المسمومة ضد القيم الروحيـة الأصيلة بدعوى القضاء على الجمود والرجعية والتخلف ...

أيها المنهج العلمي ، كم باسمك ترتكب من جرائم وانحرافات وأباطيل !! أيتها الحرية ، كم باسمك تغتـال الحقائق الناصعة ، وتخدع الأجيال البريئة، وتشنق أروع الآمال والأحلام !!

الدكتور لويس عوض ينكر وجود الأمة العربية والوطن العربي ، في الوقت الذي يصبح فيه أي يهودي على سطح الكرة الأرضية اسرائيلياً ، ومنتمياً للدولة الأم التي لم يمر على إنشائها أكثر من ثلاثين عاماً .. ولويس عوض ينكر الكيـان العربي الواحد في الوقت الذي ترى فيه الشيوعية الدولية كل مؤمن بمبادئها داخل في نطاق أمتها وكيانها ، وتحارب من أجـله ، وتساوم على خلاصه ، وتقدم له أقصى ما تستطيع من عون ، ولا يرى لويس عوض في ذلك شططاً وخروجاً على المنهج العلمي الذي يزعمه ويتزيا بزيه ..

وبعد .. إن ما يريده الاسلام ليس سيادة عرق على عرق ، ولا سيطرة شعب على شعب آخر ، ولا قوامة جنس على غيره من الأجناس ، فكلكم لآدم ، وآدم من تراب ، والتميز الوحيد في ظل القيم الاسلامية ، هو التقوى ، هو العمل الصالح البناء ،

هو الخير الذي يعمّ بني البشر ، ويضفي عليهم روح المحبة والإخاء والعدل والصدق ، « لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى » ، « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ، والشيء الوحيد الذي يعتز به المسلم ، ويفتخر به هي مجموعة القيم والمبادىء الأصيلة .. هي الإسلام .. وفي الجاهلية في أي أرض كانت عنجهيات النسب والحسب هي المعايير التي ترفع من تشاء ، وتهوي بمن تشاء ، ولما جاء الاسلام ، سقطت كل دعاوى العصبية « ليس منا من دعا الى عصبية » ، وانهارت عمد العنصرية ، فلا أسود ولا أبيض ، ولكن المرء بمثله وقيمه وعمله ونفعه في ضوء الهدي الإلهي « أطيعوا ولو أمّر عليكم عبد حبشي » ، ولذا كان سلمان الفارسي صحابياً ، وكان بلال الحبشي علماً من أعلام الاسلام ، وكان صهيب الرومي أخاً لرسول الله ، كل هذا قبل أن تظهر القواميس التي أشار إليها الدكتور لويس عوض ، وقبل أن يسمع أحد عن كلمة القومية بمواصفاتها العلمية ، وتعريفها الدقيق !!

كان الإسلام هو الوطن والأمة ، هو السياسة والاقتصاد والدستور ، هو الفكر والفلسفة والأدب ، هو الدنيا والآخرة ، هو أخوة الحاكم والمحكوم ، والغني والفقير ، والجندي والقائد ، والأبيض والأسود ، بل والمسلم وغير المسلم ، إن أعظم ما يحلم به فلاسفة الماضي والحاضر هو الإخاء الانساني ، هو الحب

والتسامح بين بني البشر ، تلك كانت الصورة الحضارية الفعلية التي أبدعتها الدعوة الاسلامية ، والعجيب أن هذا مـــا تزعم الماركسية أنها تدعو إليه ، دستور هيئة الأمم المتحدة ينص عليه ، وقد سبق الاسلام تلك الدعوات الحديثة كلهـا بأربعة عشر قرناً من الزمان ، بل هو ما دعت إليـه جميع الأديان السابقة قبل أن يشوبها الهوى والتحريف ..

الواقع أن أي مفكر – بل أي قارىء – محايد يقرأ مثل تلك الدراسات الخبيثة ، يشعر بالكثير من الاشمئزاز والأسف والحزن، وإني لأعجب أشد العجب كيف يمسك القانون بتلابيب لص يسرق ساعة أو بضعة جنيهات أو جرامات من الجواهر ، ثم يترك مفكراً يسفح دم الحقيقة والتاريخ، ويدوس القيم والمعاني الروحية ، ويسرق من الناس مفاتيح الصدق والخير والخلاص والنجاة ؟؟ وهـــل الحرية أن نلوث تاريخ أمة ، ونقتل ضمير شعب أصيل ، وندعو إلى الشعوبية والتقوقع والانعزال، والعدو خارج الحدود يحتل الأرض ، وينهب الثروات ، ويمكن لنفسه، ويحشد الملايين من كل فج ؟؟

هل يتصور لويس عوض أنه بفلسفته تلك ، قادر على أن يجعل شعباً ينتصر في معركته المصيرية ؟؟ وكيف النصر بدون حشد شعوب الأمة ، وبترولهـا ومعادنها وثراوتها وتكتلها في صعيد واحد ؟؟ أم أنه يريد بطريقة ملفوفة أن ننعزل عن الأمة

العربية والإسلامية ، ثم نبحث لنا عن « كبير » أجنبي نحتمي في ظله ، ونستلهم منه العون والحماية، وهو أعلم بما يفعله «كبراء» هذا الزمان ؟؟ أكاد أشك أن وراء هذه « الآراء الحرة » (!!) مؤامرة خسيسة لا يعلم سرها إلا الله ..

في أوائل الستينات ظهرت مجلة مشبوهة اسمها « حوار » كانت تنشر باللغة العربية ، وبلغات أخرى أوربية ، وكان على رأس كتابها الدكتور لويس عوض ، ولاحظنا أن هذه المجلة تعطي مكافآت كبيرة جداً للكتاب ، ودار حولها لغط كثير ، ومن خلال الموضوعات التي كانت تنشرها بالعربية ، ثم المقالات المخالفة التي تنشرها باللغات الأخرى ، أدركنا أن هذه المجلة تحركها أصابع الصهيونية ، وامتنع عدد كبير من الكتاب الشرفاء عن الكتابة فيها ، ودارت حولها معركة في الصحف والمجلات العربية ، وانبرى لويس عوض يدافع عنها ، ويتهم مهاجميها بالتحيز والجمود واللاعلمية ... وأخيراً عرفت الحقيقة على الملأ ، كما عرف المسؤولون عنها ، والموجهون لسياستها ، والممولون لها، وكانت فضيحة كبرى .. وأخيراً خرجت إحدى الصحف اليومية تحمل مقالاً للويس عوض يعتذر فيه عما بدر منه ، ويأسف لاشتراكه في الكتابة لها .. هذا بعد أن انكشف الغطاء ، وظهر المخبوء ، ولم يعد هناك مجال للتملص أو الدفاع ، وكيف بعد أن اتضح فعلاً أن جهات صهيونية تصدرها ، وتحشوها بالفكر المسموم ، وتضر بنا في أهم معاقلنا الفكرية

والعقائدية .. أيضـاً باسم العلم والمنهج العلمي وباسم الدراسات الجادة المخلصة ، وباسم اللحاق بموكب الحضارة الحديثة ، وعالم التكنولوجيا والاستنارة والحرية ..

إن الفلسفـات المعاصرة ، كما نرى ، قدمت صورة حضارية شوهاء ، وامتلأت بالتناقض بين التنظير والتطبيق، فأي منطق وأي عدالة في الفلسفة التي قامت عليها اسرائيل ؟ وأي عدل ومحبة وإنسانية، في البقاع التي سيطرت عليها المدرسة الماركسية، وهي تلتف حولنا ، وتقدم لنا الدليل تلو الدليل على تحيزها وقسوتها ونفعيتها ؟؟

وهل ننسى قصة الصومال وأرتيريا والمهاجرين اليهود ومـا حدث في باكستان واندونيسيا ودول أفريقيـــا وشرق أوربا وغيرها ؟؟

وأي احترام لحقوق الإنسان ينبع من القرارات السياسية في أمريكا وأوربا؟؟وأية فلسفة مهما كانت نوعيتها ومبادؤها وعظمة نصوصها ؛ لا قيمة لهـا إلا بالترجمة الفعلية ، وتحولها إلى واقع وسلوك سياسي واقتصادي ، ثم محصلتها النهائية في بذر بذور الشر أو الخير ، وتحقيق السعادة أو الشقاء لبني البشر ..

إزاء تلك التجارب المريرة ، والنكسات المروعة التي ابتلينا

بهـا ، وتـكالب قوى الشر علينا ، فليس أمامنا سوى طريق واحد :

« قل هـــذه سبيلي ، أدعو إلى الله على بصيرة ، أنا ومن اتبعني ، وسبحان الله وما أنا من المشركين » ..

مبادىء .. إيمان .. فهم للدور المنوط بنا ، فإذا لم نؤمن بكلمات الله ، ونعمل على تحقيقها ، فالويل الويل ، وهيهات أن نخرج من الأزمات الآخذة بخناقنا ، أو نستخلص حقوقنا من أيدي عدونا، ولنعلم أن « نقولا بابا زغلو » لم يحرر مصر والشام من أيدي نابليون وعساكره ، وإنما فر معهم عند الجلاء ، وأن الجزائريين الذين « تفرنسوا » لم يعوقوا مسيرة المليون شهيد ، وأن « ابن جلوي » لم يستطع أن يعطل طوفان الزحف الحر في المغرب ، وأن فلاسفة الإستسلام والتمزق ، لم ينـالوا بغيتهم الشريرة في أي أرض يعيش فيها أقوام أحرار شرفاء . إن أبشع ما أخشاه ، هو أن ينخدع شبابنا بهذه الدعوات المسمومة ، التي تدعي زوراً إنها تبشر بعصر جديد ، وتزوق المنى لحياة أوفر رخاء وعدلاً وسعادة ، وتزعم أنها تنهج النهج العلمي السليم في تقويمها للأحداث التاريخية ، والتحولات الاجتماعية والاقتصادية، وإذا كان لويس عوض وأمثاله يحمـــلون لواء التبشير بدعوة جديدة ، وأمـل جديد ، فليعلموا أن دعوتنا هي الإسلام .. وأن طريقنا هو الجهاد الأمثل ، وأن عدتنا هي العلم الصحيح

والإيمان الصادق .. وأن منابعنا هي تراثنا الأصيل ، وتجارب التاريخ الحية الطويلة ، وأن الله من وراء القصد .. وصدق الله العظيم إذ يقول :

«وعنت الوجوه للحي القيوم، وقد خاب من حمل ظلماً، ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن ، فلا يخاف ظلماً ولا هضماً » ..

والسلام على من اتبع الهدى .

« السماءُ السّابعة .. واضطراب التصوّر الدّيني »

الأمر الذي نريد أن نعالجه الآن بالغ الخطورة والحساسية.. بالغ الخطورة لأنه يتعلق بمفهوم العقيدة الدينية، وبالغ الحساسية لأنه يرتبط بفن كاتب كبير لعله من عمالقة الرواية والقصة في عالمنا ، ألا وهو الاستاذ نجيب محفوظ .. ولقد كنت وثيق الصلة بالاستاذ نجيب منذ أكثر من ثمانية عشر عاماً . ولا يشك أحد أنه قد ترك بصمات واضحة في أدب جيله والجيل الجديد، فهو من ناحية الشكل الفني ، والمهارة التكنيكية واللغوية ، وروعة التعبير ، واختيار اللفظ المعبر ، والحوار الحي ، والديالوج المتدفق ، هو في هذا كله لا يبارى لكن القضية تتعلق بالمضمون .. أو بالفكر الذي يحمله الوعاء الفني ..

ولقد كان نجيب محفوظ كثير الإلحاح على قضية الايمان بالله والغيبيات والقيم الروحية ، يتعرض لها كثيراً ، ويناقشها من زوايا عدة ، لكن الأمر الذي لفت نظري في كثير من قصصه

ورواياته أن فهمه لمجموع المبادىء التي تشكل عقيدة المسلم فهم مضطرب ، فيه كثير من الحيرة والشتات، وبمعنى آخر فيه كثير من « الاجتهاد » الذي جانبه الصواب ..

ولقد ازداد إيماني بهذا الرأي عندما قرأت قصته الأخيرة « السماء السابعة » التي نشرت في الأهرام .. وأستطيع أن ألخص وجهة نظري في النقاط التالية :

أولاً – إن نجيب محفوظ مؤمن بالعالم الآخر .. هذا حق .. لكن ما هي الصورة التي يرى الناس عليها بعد موتهم في هذا العالم ؟؟ إن تصور نجيب محفوظ هنا تصور غريب ، لا يرتبط بالمفاهيم الدينية – الإسلامية بالذات – فهو يرى أن الموتى تلتقي أرواحهم في السماء الأولى للمحاكمة .. فمنهم من يحكم عليه بالبراءة، فيصعد إلى السماء الثانية ، ومنهم من يحكم عليه بالإعدام ، فيعود إلى الأرض في صورة شخص آخر لعله يستقيم ويحسن من سلوكه، وهذا يعني فكرة تناسخ الأرواح التي يؤمن بها بعض الهنود والصينيين وغيرهم في آسيا.. ومن الناس من يكون وسطاً بين الأمرين ، فتعود روحه إلى الأرض تعمل «مرشداً» لأحد الناس لعلها تنجح في مهمتها ، فتعود إلى السماء الأولى ، ثم تصعد إلى السماء الثانية .. وتطبيقاً لذلك فقد قرر المؤلف ، أن خالد بن الوليد وغاندي قد صعدا مباشرة بعد أن برئت ساحتهما .. وأن

كارل ماركس قد عاد مرشداً لمصطفى محمود ، وجمال عبد الناصر عاد مرشداً للقذافي.. وأن ستالين قد أعيد الى الأرض في صورة طاغية من طغاة الأحيـاء في القاهرة ، بسبب قسوته وقتله للعمال بـدلاً من أن يعلمهم ويربيهم .. إذن فكارل ماركس من الصالحين، وغاندي على قدم المساواة مع خالد بن الوليد..ولو نظرنا إلىهذه الأحكام في ضوء الاسلام، والعقيدة التوحيدية لوجدنا في تصوراته خطأً جسيماً .. لأن رفض ماركس مثلاً للأديان وفكرة الإله الواحد ، واعتباره الأديان أفيوناً للشعوب أو مخدراً لهـا . لأمكننا أن نصل إلى ذلك التصور الهش المضطرب للمفاهيم الدينية ..

ويبدو أن نجيب محفوظ يرى أن الأديان المعروفة لا يوجد بينها فرق يذكر ، كما يظن أن الماركسية والغاندية وغيرهما من الحركات « الإصلاحية » والفلسفية المعاصرة هي نوع آخر من الأديان ، يضم إلى الأديان المعترف بها ، وهذا التصور ماسوني قومي بشري بحت ، يسقط عمليات التحريف والتشويه التي ابتليت بهـا العقائد الكثيرة ... وقد يقول قائل إن الدين عند الله الاسلام وأن دعوة ابراهيم وموسى وعيسى وغيرهم ، في تصور العقيدة الاسلامية، هي إسلام أيضاً ، والحق أن المسلم لا يكتمـل إسلامه إلا بالايمان بجميع الأنبياء والرسل والكتب السماوية .. لكن أية كتب مثلاً ؟؟ إنها الكتب التي لم تتناولها يد التحريف

والتغيير والعبث .. فالتوراة الحقيقية قـد فقدت .. ولا يستطيع أحد من الباحثين– حتى الأجانب – أن يجزم بأنها كانت باللغة العبرية ، لأنهـا أنزلت على موسى في العصر الفرعوني في وقت سيادة اللغـة الهيروغليفيـة . واليهود اخترعوا التلمود ، وضموه إلى كتبهم المقدسة ، بعـد أن صنعوا توراة جديدة على هوى أحبارهم ، وقد أكد القرآن هذه المعاني كلها ..

ثانياً : إن نجيب محفوظ قد استقى الكثير من ثقافته المؤثرة على يد استاذه سلامة موسى ، ومعروف من هو سلامة موسى الذي شن حملة شعواء على الأديان – قاصداً الدين الاسلامي بالذات – وهاجم اللغة العربية ، وطالب باستخدام العامية ، حتى يقطع صلتنا بتراثنـا القديم الرائع وعلى رأسه القرآن الكريم والتراث الفقهي والحضاري ، والواقع أن سلامة موسى كان ذا وجهين ، وجـه يعادي الدين ، ووجه آخر خفي يؤكد على حفاظه على دينه ، واهتمامه به ، حتى أنه دفن في مقابر الصفوة الممتازة من رجال دينه .. ولا أقول إن نجيب محفوظ قد قطع صلته بالتراث الاسلامي، ولكن ما أقوله هو أن نجيب محفوظ كان معجباً بكتابات المرحوم « علي عبـد الرازق » صاحب كتاب « الاسلام وأصول الحكم » ذلك الكتاب الذي أثار ضجة في حينه ، واعترض علماء الأزهر ، وكبار رجال الفكر الاسلامي على مـا ورد

فيه .. ولقد ثبت في ذهن نجيب محفوظ أن الرسالة جاءت لوقت معين، ولبت احتياجات واقعية تاريخية، مما يفهم منه أن عصرنا في حاجة إلى ايمان جديد، وفهم مستحدث للعلاقة بين الدين والحياة .. ولم يحاول نجيب محفوظ أن يفعل كما فعل توفيق الحكيم الذي درس الاسلام بعمق وروية، ووصل به الأمر إلى تصنيف كتاب جيد في تفسير القرآن.. نستطيع إذن أن نقول أن نجيب محفوظ لم يبذل الجهد الواجب في دراسة هذا الموضوع الخطير .. موضوع العقيدة، فجاءت أحكامه مهتزة مضطربة .

ثالثاً : لوحظ في محاكمة الموتى في السماء الأولى أنه لم يسأل أحد منهم عن الفرائض المختلفة التي كلف بها المؤمن ، فلا شيء عن الصلاة والصوم والزكاة والتوحيد .... الخ ، الحساب منصبّ فقط على مجابهة الفساد والظلم، وهذا جانب لا يمكن انكاره، وما جاءت العبادات إلا طاعة لله ، وترجمة لسلوك الفرد الذي يجب أن يتأثر بهذه العبادات أو الفرائض ، وينقلها إلى تصرف وفعل في واقع الحياة .. ونجيب محفوظ بهذا الفهم يروج للفكرة القائلة بأنه لا يهم ما نؤمن به ، المهم أن نسلك سلوكاً سوياً مفيداً للناس، وبذلك ندخل الجنة ، يستوي في ذلك كارل ماركس وغاندي وخالد بن الوليد وسعد زغلول وغيرهم، ولا أهمية بعد ذلك لتوحيد أو صلاة أو زكاة أو صوم على ما يبدو .

رابعاً: إذا كان لكل انسان « قرين » كما ورد في القرآن، فإنه لم يقل أحد من العلماء أن هذا القرين هو روح أحد الموتى، وهـــذا « الاجتهاد » الوارد في قصة « السماء السابعة » لا يستند على أساس من العلم الديني أو التجريبي .

خامساً : إن في الإسلام حدوداً منصوصاً عليهـــا في الدنيا ، وتوضيحـــاً لمرتكبي الكبائر وطريقة معاملتهم في الآخرة ، بآيات ثابتة لا غموض فيها ، ونجيب محفوظ يسقط هـــذه المقررات المؤكدة التي لا مجال فيها لتغيير أو تبديل، وتجاهل كاتبنا الكبير لهذه الأمور يحمل أكثر من علامة استفهام ..

سادساً : إن كثيرين من شباب العالم الاسلامي للأسف ليس لديهم التصور الكامل للبناء العقائدي الاسلامي ، وحينما يقرأون قصصاً مثل قصـــة « السماء السابعة » لكاتب « مسلم » مثل نجيب محفوظ ، فسوف يأخذون ما يكتبه مأخذ التصديق التام ، ويظنون أنـــه هو الاسلام بعينه ، ونحن نعلم أن من يقرأون لنجيب محفوظ ، أو يشاهدون أعماله على شاشة السينما والتليفزيون ، أكثر بكثير ممن يقرأون للعقاد وشيخ الأزهر وأبي الأعلى المودودي وأمير الشعراء وغيرهم .. ومن يدري ؟؟ قد يأتي يوم يصبح فيه هـــذا إلتصور الخرافي أو الشاعري أو الأدبي للعقيدة هو الأساس لأجيال جديدة حرمت من ورود المنابـع الحقيقية للدين والفكر .. وما دام

الملاحدة ، ومنكرو الأديان – في تصور نجيب محفوظ – قد نجوا من الإدانة الصارمة، ونزلوا مرشدين إلى أرض الله، فليفعل الناس ما شاءوا ، وعليهم فقط أن يكونوا من ذوي الأخلاق الحسنة ، ولا أهمية لشعائر أو فرائض أخرى نص عليها الدين الحنيف ..، ولتسقط كل الحواجز بين الدين الصحيح ، وبين الأديان المحرفة المخترعة، وليسقط الفرق بين الدين واللادين، ما دام نجيب محفوظ يبشر بالسعادة الأبدية لمن يفيدون البشرية حتى ولو كانوا بلا إله.. أعني سواء وحدوا.. أو ثلثوا .. أو كفروا أو آمنوا ..

أليس عجيباً ألا يرد اسم أحد من الأنبياء في السماء الأولى حتى أثناء المحاكمة ؟؟ وبطبيعة الحال لسنا في موقف لنبين فيه العلاقة بين الفرائض والعبادات وبين السلوك الفردي، ولا العلاقة بين الشريعة السماوية وبين حركة المجتمع وسعادة البشر ، ولن نتحدث عن الأهداف والوسائل في ظل المفاهيم الدينية . ولا عن التجربة الحضارية الرائدة التي تولدت عن العقيدة السليمة ، فهذه كلها أمور كبيرة تحتاج إلى كتب ومجلدات .

وإذا كان نجيب محفوظ يريد أن يقدم « رسالة الغفران» الجديدة على غرار ما فعل أبو العلاء المعري، فعليه أن يلتزم على الأقل بما التزم به أبو العلاء في رسالته، لكن الأمر الذي يحتاج

إلى اهتمام هو أن نجيب محفوظ نفسه ما زال في حاجة ماسة إلى تحديد كثير من الأمور التي ترتبط باقتناعه الشخصي ، وبعقيدته الاسلامية .. فلا يمكن بأي حال من الأحوال أن يكون ذلك « الثوب المرقع » من التصورات العقائدية هو الصورة المثلى لأزياء العصر .. اللهم إلا إذا اعتبرنا موجة الهيبز والخنافس هي أرقى تصور لما يجب أن تكون عليه الفلسفات والعقائد المعاصرة ..

مرة أخرى أرجو للاستاذ الصديق نجيب محفوظ — وقد تخطى الخامسة والستين من عمره المديد إن شاء الله — أن يعود إلى كتاب الله ، ويدرسه دراسة مستأنية عميقة ، بصدق وعزيمة ، وأن يحاول أن ينظر إلى الفلسفات التي تلقاها في كلية الآداب على ضوء جديد .. فهو يعلم قبل غيره ، أن كثيراً من هذه الفلسفات الوضعية قد اندثرت أو كادت .. وبعضها قد أصبح كالخرافات أمام منجزات العلم الحديث.. وأعتقد أن هذا الموضوع جدير بالنظر والحسم ، لا من أجل نجيب محفوظ كشخص فنان مبدع ، ولكن من أجل الأجيال الجديدة التي هي أمانة في أعناقنا ..

نقطة أخيرة .. إن إيمان نجيب محفوظ بالعالم الآخر يعني إيمانه بالله على طريقته الخاصة ، وكان أحرى بهذا الايمان أن يكون في إطار ما أنزله الله على أنبيائه ورسله وما جاء

في الكتب السماوية ، ففي العقيدة أمور محددة ثابتة لا مجال فيها لتغيير أو تبديل ، وهذا ما نسميه بالجانب « الثابت »، وهناك مجالات أخرى يستطيع العقل البشري أن يصول فيها ويجول ويبدع ، وهذه وتلك أشياء فرغ منها العلماء من قديم ، ونص عليها بما لا يدع أي مجال للشك .. اللهم إلا إذا تصورنا –وحاشا لله أن نتصور ذلك– أن البناء العقيدي الذي أنزله الخالق ، في حاجة إلى ترميم أو إضافة أو نقصان من المخلوق .. فالخالق جل وعلا أدرى بما يصلح المخلوق .. وكلما فهم المخلوق علاقته بالله ، ومكانته في هـذا الكون ، والرسالة المنوطة به .. كلما عرف الطريق السليم ، وسار على المنهج الصحيح .. وصدق الله العظيم إذ يقول :

« قل هـذه سبيلي ، أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني ، وسبحان الله وما أنا من المشركين » صدق الله العظيم .

الشبابُ وأحلامُ الحُرِّيَّة ...

إن « الحرية الحقيقية » هي المناخ الصحي الذي يتنفس فيه الشباب ، ومن ثم تنمو أشرف القيم الانسانية وأغلاها ، وتبرز المواهب والكفاءات البناءة ، فيولد جيل قوي يستطيع أن يؤدي واجبه نحو وطنه ، ويحمل رسالة عقيدته في كل الأنحاء ، ويحقق مـا نحلم به من فوز وانتصار ، لكن أية حرية نقصد ؟ أهي حرية الانطلاق الأرعن ، والانفلات من آداب القيم الروحية ، والإقبال على مختلف الملذات والشهوات والممارسات الطائشة ، والهروب من المسؤولية، والانغماس في ماديات الحياة، وإهدار الارتباطات الأخوية المقدسة ، والتسيب الكامل ، باسم تحقيق الذات، والتخلص من عقد الكبت والخوف والشك والتردد ؟؟؟

لا أعتقد أن ذلك يعني الحرية الحقيقية الصادقة ، فالحرية في

أي عصر، ولدى أية داعية ، ومن صميم أية فلسفة، لا يمكن أن تحمل هذا المعنى الفوضوي المدمر ، وإلا انقلبت الحياة إلى سوق للتخبط والعبث ، وتحولت إلى غابة تنضح بالوحشية والصراع الدامي ، وتصادم المصالح والأهواء والآداب العامـــة ، والقيم السائدة ..

فالحرية في أي مكان وزمان لها ضوابط ، وتعني أن هناك حقوقاً وواجبات ، وهو نوع من التكامل أو التوازن لا يمكن تجاهله ، وإلا اضطربت مسيرة الإنسان ، وتعطلت قافلة التقدم، وتصدع البنيان الاجتماعي والأخلاقي . وبتعبير آخر نقول إن الحرية الحقيقية هي الحرية المنظمة التي لها حدود متعارف عليها، وذلك من أجل مصلحة الفرد والمجتمع ، ولقد تفاوتت مفاهيم الحرية بين المدارس الفلسفية المختلفة ، لما تشتمل عليه من عقائد سياسية واقتصادية ، فالماركسيون قـد جعلوا مصلحة المجتمع فوق كل اعتبار ، حتى ولو أهدروا بذلك حرية الفرد، واليمين المتطرف قـد أطلق العنان للحرية الفردية في مجالات السياسة والاقتصاد والأخلاق ، ثم تراوحت المدارس الفكرية الأخرى بين أقصى اليمين وأقصى اليسار ، فنتج عن ذلـك تصورات عديدة لمعنى الحرية ، حتى في المجتمع الواحد .. والآن ماذا عن شبابنا والحرية في بلاد الاسلام العريضة ؟؟

القضية هنا شاقة وعويصة لحـــد كبير ، والشباب مظلوم

مظلوم .. هذا ما أؤمن به أعمق الإيمان ، ولقد كان من المفروض أن يكون مفهوم الحرية لدى المسلمين واضحاً محدداً ، من خلال كتاب الله وسنة نبيه، ومن تراث الحضارة ذات التاريخ الطويل الباهر ، ومن خلال الممارسة الناجحة في أعظم عصور التاريخ الانساني ، لكن الخطأ الأكبر ، أننا ابتعدنا عن مفهوم الحرية بمعناها الإسلامي، ووجدنا أنفسنا تائهين نتخبط في أرض الفلسفات الوافدة من الشرق والغرب ، بل إننا قد نجد دولة من الدول الاسلامية قـــد اختطت لنفسها طريقاً في الفكر والسياسة والاقتصاد ، وربت شبابها على ذلـك ، وجرعتهم فلسفتها من خلال المناهج الدراسية وأجهزة الإعلام المختلفة، وطاردت بعنف كل من يعارض أو يتخلى عن تلك الفلسفة ، بل كل من يقف منها موقفاً سلبياً ، كانت المطاردة من الشراسة والقسوة بشكل محزن .. لكن الذي يدعو إلى الدهشة والعجب أن تتحول تلك الدولة أو غيرهـــا إلى النقيض لسبب من الأسباب ، فتعادي خطها الأول ، وتتخذ منهجاً فكرياً جديداً ، وفلسفة مغايرة تماماً ، وتبدأ القصة من جديد ، فنرى مطاردات جديدة لرجال الأمس، وترحيباً شديداً بأعداء الماضي، ثم تتكرر المأساة مرات ومرات ، والشباب في هذه الأجواء العاصفة الغامضة ، يتطوح يمناً ويساراً ، ويدفع الثمن غالياً ، ويسقط بين براثن التمزق والضياع ، ويختل توازنه الفكري دون ذنب جناه ، ومن جراء

تلك التحولات والصراعات العشواء، تتولد الجماعات «الرافضة»، و «الخلايا المتطرفة»، و«الاتجاهات المنحرفة»، ويدفع الوطن هو الآخر الثمن غالياً، فلا يستقيم لدى الشباب مفهوم من المفاهيم، ولا يعرف له طريقاً واضحاً بيّن المعالم، فتتبدد قواه، ويضطرب عقله، وتعتل روحه، ويعجز عن أداء الرسالة المنوطة به، فتنبري الأقلام تهاجم الشباب، وتحلل الكارثة التي وقعت، وتنحو باللائمة على مناهج التعليم، وفلسفة الإعلام، والأجهزة الشبابية المختلفة .. وحق للشباب عندئذ أن يتمثل بقول شاعرنا القديم رحمه الله :

أضاعوني وأي فتىً أضاعوا
ليوم كريهةٍ وسداد ثغرِ

وفي هذا التيه المدلهم يبحث شبابنا لنفسه بنفسه عن طريق يسير فيه، وهو فقير في الخبرة والفكر والثقافة، ويطوع الأمور لهواه ومزاجه، ويسخط على واقع الحياة أمامه، ذلك الواقع المرير الذي ينضح بالإثم والكذب والنفاق، ويمتلىء بالمخالفات والأنانية والطمع، ويفتقد العدالة والحب والوضوح.. ونعود بعد ذلك نندب حظنا، ونبكي شبابنا، ونزعم أنه انحدر إلى مباذل السهر والخمر وإدمان المخدرات والانفلات من القيود الأخلاقية والدينية، وأهمل تثقيف نفسه، وتربيتها على الفضائل والجد والمثابرة والتضحية .. فهل شبابنا هو المسؤول عن ذلك

أم أننا نحن المسؤولون عن هذه الكارثة ؟؟

نحن الذين قطعنا عنه الورد الصافي ، والمنهل العذب، فعانى من الظمأ الشديد ، ثم مددنا إليه أيدينا بأكواب وأباريق ممتلئة بالماء العكر ، مكتظة بكل أنواع الميكروبات والسموم ، فيا نلاحقه به من فن موجَّه ، وفكر متحيز مستورد ، وفلسفات غريبة متناقضة ، ونجعله يزرع في أرضنا بذوراً لا يمكن أن تمتد جذورها إلى بعيد ، ولا تستطيع أن تمدنا بالثمر الذي نشاء .. إن شبابنا مظلوم بكل تأكيد ، ونحن ..وأنا .. وأنت .. وغيرنا..كلنا مسؤولون عن هذا الظلم الفادح، فهل نغضب ونيأس حينما نرى شبابنا يفلت من إسار تلك الفلسفات العقيمة، ويرفض في عنف وغضب ، وينضم إلى موكب الساخطين ، وتجرفه التيارات المريضة، وخاصة تلك التي تشبع طموحه، وتملأ فراغه الفكري والديني ، وترضي نزواته وتطلعاته التي لا بد لها أن تنطلق ، وتحقق ذاته ؟؟

ألم أقل منذ البداية أن القضية عويصة وخطيرة، وتحتاج إلى عمل حاسم ننسى فيه مطامعنا الشخصية ، وأهواءنا الحزبية ، وانتماءاتنا السياسية ، من أجل هذا الجيل والحفاظ عليه كثروة غالية، ومن أجل حماية الوطن من الضياع والإنهيار والتمزق ؟؟

وعلاج هذه العلة المأساوية في شيء واحد ..

ذلك هو العودة إلى الله وإلى كتابه .. إلى الحرية الحقيقية المنظمة التي رسمت حدودها يد القدرة الإلهية ، تلك الحرية التي جعلت من الفرد والمجتمع شيئاً واحداً ، وكياناً متكاملاً ، بحيث لا يطغى طرف على طرف ، فحرية الفرد لا تعني سحق المجتمع واستغلال الآخرين ، وإهدار حقوقهم ، ومصلحة المجتمع لا تتحقق بقهر الفرد وإذلاله ، وسوقه سوقاً إلى امتصاص جهوده ، وكبت مشاعره ، وربطه بعجلة الرغبات العليا لصانعي القرار .. هي حرية يعرف الفرد فيها ما عليه من حقوق ، وما له من واجبات في ظل التنظيم الإلهي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، نعم .. لأن لله حقوقاً يجب أن تؤدى ، وللناس حقوقاً لا بد من الوفاء بها ، ولنفسك عليك حقوق لا يصح أن تتجاهلها ، ويضم ذلك كله نسيج ضام من الألفة والمحبة والإخاء والعدالة والمساواة ، هذه الحرية لا تجعل من الحكام أنصاف آلهة أو ظلالاً لله في الأرض ، وإنما تنظر إليهم على أنهم بشر يصيبون ويخطئون ، ويخضعون للنقد والنصيحة والتوجيه ، وفي تصوري أن قضية « الالتزام » الإسلامي ، هي القضية الأولى بالنسبة للعالم الاسلامي في هذا العصر ، بل وفي غيره من العصور ، وإن معاركنا المصيرية ترتبط بهذا الالتزام ارتباطاً وثيقاً ، وتتجاوب به صعوداً وهبوطاً ، ونصراً وهزيمة .. وعندما يعيش شبابنا هذا الالتزام أو يعايشه ، فإن الكثير من مشاكله وانحرافاته سوف تتضح أبعادها ، وتجد الحلول المناسبة لها ..

ويمكننا أن نقول إن شبابنا قد عرف بداية الطريق عن وعي وبصيرة وإيمان ..

وشبابنا لا يريد منا مزيداً من النصائح بقدر ما يريد ممارسات عملية، عن طريق سلوك واقعي يراه ويلمسه ويقتدي به، عندئذ لا نرى شبابنـا يبحثون عن انتماءات خارجية ، ولا يعتصمون بفلسفات مريضة مستوردة ، ولا يهتمون بالشكل دون الجوهر، ولا يهربون إلى دول أجنبيـة بإخلاصهم وذكائهم ومنجزاتهم العلمية الباهرة ، بعد أن فقدوا الحرية في أرض الاسلام، ويئسوا من الحصول على الموقع المناسب لهم في الحياة العملية ، وبعد أن قاسوا مرارة الذل والاضطهاد بسبب رأي ارتأوه ، أو موقف من المواقف اتخـذوه ، أو رفض لصورة من صور الانحراف والمهانة ليس فيها مصلحة عامة مقنعة ..

إن المقاييس الإسلامية هي وحدها القادرة على تقييم الرجال، لأنها لا تعرف التحيز أو المجاملة ، ولا ترتبط أحكامها بصغير ولا كبير ، أو حاكم ومحكوم ، وإنما ترتبط بالالتزام الاسلامي وحده، وفي ذلك خير الدنيا والآخرة، وسعادة الفرد والمجتمع.. لكن بقيت كلمة أسوقها لشبابنا ..

إن موقف السخط أو الرفض لا يصح أن يحركم إلى اليأس والإرتماء في أحضان الضياع والانحراف ... انتم مسؤولون

أيضاً .. مسؤولون بما وهبكم الله من فكر ، وبما منحكم من قدرة على النظر في الأمور ، والبحث عن الذات الاسلامية ، فهناك العديد من الدراسات الحديثة والقديمة في عالمنا الاسلامي، بل هناك من كتبوا عن الاسلام في أوربا وأمريكا بروح منصفة محايدة ، فلا يصح أن يصدر الشباب أحكامهم في قضية بلادهم من خلال تصوراتهم الخانقة ، بل لا بد من الإلمام بأطراف القضية ، عن طريق الاطلاع والدراسات المقارنة ، لأن أكبر خدعة ممكن أن تسقطوا فيها ، هو الاكتفاء بسماع طرف واحد في قضية خطيرة كقضيتنا ، وحاولوا جهدكم ، أن تبحثوا عن جذوركم الحقيقية ، وعن انتماءاتكم السليمة ، وأن تستشعروا المسؤولية الضخمة الملقاة على عاتقكم ..

وثقوا – أيها الشباب – أن أية معركة لن تحقق النصر إلا بكم ، وأي تقدم علمي أو اقتصادي أو سياسي لن يكون له وجود واستمرار إلا بما تبذلونه من جهد مخلص ، فأنتم الرجاء والأمل، وأنتم العدد والعدة، وانتم الماضي والحاضر والمستقبل.. ولن تستطيعوا أن تقوموا بهذا الواجب المقدس إلا في ظل الاستقرار والتوازن النفسي والفكري ، وهما لن يتحققا إلا بالعودة إلى عقيدتكم العظيمة .. ورحم الله شاعرنا الكبير إذ يقول :

قل للشباب مقال صدقٍ واقتصد
ذرع الشباب يضيـق بالنصّاحِ

أنتم بنـو اليوم العصيب نشأتمو
في عصف أنواء ، وهوج رياحِ

ورأيتم الوطن المحطّم صخرةً
للنائبـات وسيلهـا المجتاحِ

والسلام على من اتبـع الهدى .

أوهام الفنّ.. وتربية الجيل

يلعب الفن دوراً رئيسياً في تشكيل أخلاقيات الشباب ، ونظرتهم إلى الحياة والناس ، وحكمهم على الأوضاع الراهنة ، والمستقبل أيضاً ، وتقف السينما في مقدمة أدوات التأثير الجماهيرية ، وكذلك الفن التمثيلي عموماً ، وقد يكون هذا التأثير أعمق أثراً ، وأبعد مدى من مناهج التربية والتعليم ، بل ربما يحدث بين الاثنين نوع من التناقض أو التضاد، وذلك لغياب الخطة الشاملة الخاصة بتربية الجيل، وتوجيهه الوجهة الصحيحة، ومن ثم أصبح رجال التربية والتعليم في واد ، ورجال الفن في واد آخر ، والمعروف أن الفن مزود بمغريات ومشهيات كثيرة، تجعل الإقبال عليه أكثر ، والتأثر به أكبر .

هذا الحكم العام الذي نقرره لا يعني اتهام الفن اتهاماً مطلقاً، وإدانته في موجات التحلل والانحراف ، ففي الفن يختلط الجيد بالرديء ، والمفيد بالضار، والحقائق الصادقة بالترهات الخادعة، ويمتزج السم بالدسم ..

والفن التمثيلي يمدنا بالكثير من المتعة والترفيه والتوجيه ، وقد أصبح عنصراً أساسياً في برامج الإذاعة والتليفزيون ، فضلاً عن تفرده في دور السينما والمسارح ، لكن هـذا الفن الجميل قد خضع لعديد من الظروف والاعتبارات المختلفـة ، فالناحية التجارية قد أخضعت القصة السينمائية لشروطها من حيث اختيار الموضوع ، وطريقة الأداء ، وتلبية الغرائز والأحلام ، وما يتبع ذلك من إثارة وتشويق ومفاجآت ، مهما تعارض ذلك مع القيم المتعارف عليها ، والأخلاقيات الأصيلة التي هي جزء من تاريخنا وتراثنا وحضارتنا .

إننا نرى مثلاً أن « قداسة الأسرة » المسلمة ، قـد تعرضت لهجمة شرسة من الفلسفات والتصورات الغريبة ، أغلبها وافد من الفكر الغربي المتحلل ، فالزوجة التي تخون زوجها ، وتهمل أبناءهـا ، وتهجر بيتها ، استجابة لنزوات طارئة ، أو بحجة الحرية في اختيار « حبيب القلب » ، لاسباب تافهة غير مقنعة ، والتمرد الأرعن على القيم والتقاليد ، بحجة التجديد والعصرية والتحرر ، وإهمال الشعائر والآداب الدينية ، باعتبارها تخلفاً ورجعية ، والانسياق وراء العبث واللهو والخمر والسهر ومطاردة النساء ، والصراع الأحمق الوحشي من أجل الكسب المادي ، كل ذلك قد أدخـل إلى حياتنا ألواناً شاذة من السلوك والتصورات تحمـل الكثير من الأضرار ، وتساعد على تمييع شخصيتنا ، والقضاء على التميز والتفرد الخاص برجالنا ونسائنا ..

وليت الأمر وقف عند هذا الحد في استعارة أوجه الحياة الغريبة من الفنون الأجنبية ، بل إن بعض أعمالنا الفنية الملتزمة بقضايانا وتقاليدنا ونظرتنا الخاصة للحياة ، قد شوهت تماماً، على أيدي نفر منا ، عندما تحولت إلى أعمال تمثيلية أو مسرحية ، وإني لأذكر تلك الرواية التي كتبتها منذ ما يقرب من أربعة عشر عاماً ، وهي قصة « الذين يحترقون » ، لقد صورت بطل القصة بصورة تجعل منه طبيباً مؤمناً بالله وبحقوق الجماهير المغلوبة على أمرها ، وأخذ هذا البطل يصارع قوى الفساد والشر ، عن ايمان بالله لا يتزعزع ، وثقة كبيرة لا تضعف . كما كنت حريصاً على جعله يظهر بصورة الرجل الذي يلتحم بالناس في المجتمعات والمساجد ، ويلقي الضوء على حقيقة مشاكلهم ، ويخرجهم من استسلامهم وسلبيتهم ويأسهم، إلى حياة تنبض بالصدق والأمانة والقوة والكرامة ، ويستشهد في أحاديثه بمقتطفات من التراث الديني والاخلاقي .. ولقد فوجئت عندما أعدت هذه الرواية كمسلسل تليفزيوني ، بأن الذي أعدها قد أهمل الكثير من هذه السمات الأصيلة والحيوية للشخصية ، ورأيته يقدم نموذجاً للبطل كتلك النماذج التي يمكن أن نراها في أرض سوفيتية أو أوربية ، بل إنه يتمثل في أحاديثه بكلمات لفلاسفة آخرين ، ينظرون إلى الأمر نظرة دنيوية بحتة ، ونسي المعد أو تناسى ذلك الخيط الدقيق الذي يربط دنيا البطل بأخراه، ويجمع بين الدين والحياة، وتجاهل النبع الإلهي الرقراق الذي يمد قلوبنا وعقولنا بالطاقة

السحرية الهائلة ، التي تجعلنا نمضي في المعركة أعزاء أقوياء ، لا نقصد إلا وجه الله الكريم ..

وما أكثر الشباب والشابات الذين يأخذون مثلهم العليا من فن السينما والمسرح والتمثيل ، إنهم يرون الأبطال، وهم يتحركون على الشاشة أو على خشبة المسرح، وحياتهم كلها ملذات ونزوات أو ما يسمونه خطأ بالحب ، ويرونهم يرتدون أفخر الثياب ، وأحلى الجواهر ، ويحققون ما يريدون ، فيظن شبابنا أن الحياة على هذه الوتيرة من السهولة واليسر والإباحية وإشباع الرغبات، فيدخل في روعهم أن تلك الصورة هي الواقع ، وأن ما يرونه حولهم خداع وظلم ، ومن ثم يتمردون ويسخطون ، ويبحثون عن أيسر السبل كي يحققوا تلك الأحلام الوردية التي زوقها لهم ذلك الفن المخادع الذي يمالىء عواطف الشباب وينافقها ويسترضيها على حساب أعظم القيم وأنبلها ..

وإذا كان الفن وثيق الصلة بالمجتمع ، وانعكاساً لواقع الحياة ومشاكلها وآلامها وآمالها ، فإن الامر جد مختلف عندنا ، إنه أبعد ما يكون عن الحقيقة والواقع ، ذلك لأن فنوننا سقطت في قبضة التقليد ، واستعارة الأفكار والقضايا الأجنبية ، وعاشت عالة على التراث الأجنبي ، واستسلمت لتياراته وأهوائه واتجاهاته ، فتاهت مقاصدنا بين غوغائية الفلسفات المستوردة ، ولم نستطع أن نقدم فناً متميزاً أصيلاً يحظى بالاحترام والتقدير ..

إن الأمر الذي يعجب له الإنسان أشد العجب ، هـو أن مهنة التربية والتعليم سواء في الجامعة أو المدارس لها قيود ومواصفات ومؤهلات ، بحيث لا يتولى أمرها إلا من اكتملت له الشروط المحددة من درجة التعليم والخبرة، أما الفن فقد ترك له الحبل على الغارب ، وأصبحت الأغاني والتمثيل والقصص عملاً مباحاً لكل إنسان، وأهملت الرقابة على هذه الأمور، وتغلب الهدف المادي والترفيهي على الجوانب التربوية والأخلاقية والروحية، بل أصبح الفن والفنان مرتبطاً في أذهاننا بالتحرر اللامحدود ، والانطلاق الأرعن ، والتحلل الممجوج ، وأصبح الفن نوعاً من المخدرات أو المسكنات لتلك الجماهير المطحونة ، التي شغلتها لقمة العيش ، ومتاعب الحياة ، عن التعمق في هـذه الجرائم التي ترتكب في حق الأجيال الجديدة ..

وبطبيعة الحال فإن الأمر لا يعني مطلقاً أن نحول الفن إلى مجموعة من النصائح المباشرة أو الوعظيـات والخطب ، فالفن تعبير غير مباشر ، وله مواصفاته وقواعده ، ونحن لا نطالب بهدم هذه القواعد أو النيل منها ، وإنمـا نركز على المضامين الفكرية فيه ، وعلى الايحاءات والتأثيرات الوجدانية التي يخلفها في نفس المتلقي، وعلى صور الأحداث المتراكمة المعقدة التي لا بد أن تهدف إلى شيء أعمق وأعظم، حتى ينشأ جيل جديد يدرك معنى الحرية الحقيقية ، والحب النظيف ، والجهـاد الشريف في

قلب معركة الحيـاة . والوصول إلى الأهداف النبيلة ، بالوسائل المشروعة ..

لقد صور لنا الفن المستورد الحياة العصرية من جانبها المنحل، فالزوجة تراقص رجلاً غـير زوجها ، وتخاصره ويخاصرها ، واشتداد الأزمات معناها أن يهرع البطل إلى زجاجات الخمر كي يطفىء غضبه وقلقه ، ويخفف من حزنه وأساه ، والحرية أن تفلت الفتاة – أو الفتى – من رباط الأسرة، وتنطلق على هواها تعاشر وتخالل ، والآباء والامهات يظهرن دائماً بصورة المتعنتين المتخلفين الذين يصادمون نواميس التطور والتقدم ، والإسراف والاتلاف معناهما الرجولة والشهامة والوفاء ، وارتكاب جرائم القتل ، والكلمات والخناجر بطولة ، والعنف والرعب الدموي في أفلام مصاصي الدمـاء ، وسيلة للتعبير عن الذات ، وهو في الواقع جوانب منحرفة شاذة، أبعد ما تكون عن طبيعة الإنسان السوية ، واتزانه النفسي .. مثل هـذه الإمور التي تسيطر على الفن التمثيلي ، قد أفرزت العديد من الانحرافات والشذوذ ..

إن أبواب العالم الاسلامي المغلقة في وجوه الأجانب ، هي في الواقع مفتوحة على مصراعيها للفنون البذيئة المدمرة ، تتسلل منها ألوان شتى من الأوهام والأوبئة الفتاكة ، وتفد الينا من خلالها أفكار وآداب ذات هوية مشبوهة ، وبعثاتنا التي نبعث بها الى الخارج، تعود الينا وقد تشبعت « بالاثم الفني »، وخلعت

عنها رداء شخصيتها وأصالتها ، وعادت مسخاً مشوهاً ، يخدم مخططات خبيثة من حيث تدري أو لا تدري ..

تلك هي الصورة الغالبة على فنوننا ، وهي صورة أبعد ما تكون عن الصدق ، ولا تتفق مع واقع حياتنا وطبيعتها ، وليس لها اتصال وثيق بتراثنا وآدابنا وشخصيتنا ومبادئنا ، حتى في البلدان الاسلامية التي أقامت مؤسسات للفنون والآداب ، قد فاتتها هذه الحقائق الهامة ، وركزت على الشكل دون الجوهر ، واهتمت بالصورة دون المضمون ، حتى الهيئات التي وضعت تحت التوجيه بدوافع النظم السياسية ، قد نظرت الى الأمر نظرة قاصرة ، بحيث التفتت الى الترويج للمبادىء السياسية التي تكفل لها الأمر والاستمرار والاستقرار ، ولم تتناول النواحي الاخلاقية والاجتماعية التناول الصحيح ، فما دام الفن لا يمس النظام ولا يتعرض له بالنقد أو المعارضة ، فله أن يفعل ما يشاء ، تلك النظرة القاصرة ، انحرفت بالفنون الى زوايا خطرة ، وبذرت بذور الفساد والتحلل والتمزق في الكيان الاجتماعي ، وأخذت تفعل فعلها في خبث ودهاء ، في غيبة الوعي الصحيح ، وفي غفلة الضمير الحي الحر ..

إن وجهة النظر الاسلامية بالنسبة للفنون ليست قاصرة ولا جامدة ، وليس هناك عداء بين الفن الصادق وبين الدين ، بشرط أن يعرف الفن مكانته بالنسبة للدين ، فالفن وسيلة ،

أو دعوة لقيم الخير والحب والجمال ، والسمو بروح الانسان وفكره وغرائزه ، الفن ليس هدفاً في حد ذاته ، ولكنه أداة لصنع الانسان القوي الحر المجاهد ، الانسان المنطلق في أنحاء الارض يكتشف ويعمر ويدافع عن القيم النبيلة ، ويحمي شرف المخلوقات ، ويذود الظلم عن المظلومين، ويخوض «معركة» السلام النفسي والاجتماعي والعالمي ، حتى يكون لدينا عالم يسوده الرخاء والإخاء والمحبة ..

من هنا نرى أنه لا صحة لما يقال عن وجود فجوة سحيقة بين الفن والدين ، ما دام الفن – من خلال التصور الاسلامي – يخدم قضية الدين ، ويعمل جندياً مخلصاً أميناً تحت لوائه ، وداعية صادقاً في ظله ، يتشرب قيمه وآدابه ، ولا شك أن رداء « الاسلامية » الذي يتزيا به الفن يعتبر شرفاً ما بعده شرف ، ومجداً لا يدانيه مجد ، وما أحوجنا الى طائفة من رواد الفن الاسلاميين مزودين بأحدث الأشكال الفنية ، كي يضعوا « البديل » لتلك الترهات والأوهام التي أفسدت معظم الفنون والآداب العالمية .

الرّافِعي .. وَالأيْدي المتوَضِّئة

في النصف الاول من القرن العشرين كان العالم يموج بأحداث كبرى ، فقد شهدت هذه الفترة حربين كبيرتين، الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ والحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩ ، كما شهد العالم قفزات هائلة في العلوم والفنون وفي التكنولوجيا الحديثة، وكان صراع القوى العالميــة يتجلى في كثير من الساحات ، واستعملت فيه مختلف الأسلحــة والأساليب ، كما شهدت تلك الفترة أيضاً تغيرات ضخمة في العالم الاسلامي ، حيث سقطت دولة الخلافـة الاسلامية ، وتمزقت الشعوب الاسلامية عامة ، والعربية خاصة ، وتمكنت القوى الاستعمارية أن تسيطر على مقدرات الأمــة الاسلامية ، وتستغل ثرواتها وشعوبها بشتى الطرق ، مستخدمة العنف تارة ، وألوان الدهاء تارة أخرى ، وكان طبيعياً أن تنبثق دعوات الإصلاح في بلادنا ، وأن يحمل لواءها رجال من مدارس فكرية متنوعة، ودار الصراع بين دعاة التحرر ، عــن طريق التجديد والأخذ بأساليب العصر

المستحدثة ، ودعاة اليقظة الشاملة ، عن طريق إحياء التراث، والتشبث بالقيم العريقة ، التي كان لها الفضل في ابراز حضارتنا المتميزة ، وتحديد ملامح شخصيتنا التاريخية ، والواقع أن ذلك التناقض أو التصارع بين دعاة التجديد والتقليديين لم يكن على تلك الصورة الصارخة ، أو ذلك التناقض الحاد ، لأن دعـــاة التجديد أغلبهم لم يهمل التراث ، اللهم إلا فئة قليلة متعصبة لكل جديد ، ورفض كل قديم ، وكذلـك كان التقليديون لا ينكرون أهميـــة الأخذ بالأمور المناسبة المفيدة من منجزات العصر الحديث ، لكن المغالاة في الدعوة إلى التجديد المطلق ، كانت تدفع بعض التقليديين إلى التثبت أكثر وأكثر بالقـــديم وقيمه، وفي هذا الجو العاصف ظهرت دعوة الأفغاني ومحمد عبده وقاسم أمين وطه حسين ، وظهر من الشعراء أحمد شوقي وحافظ ومحمد عبد المطلب، وظهر من النقاد العقاد والمازني وشكري ، وظهر من الكتاب مصطفى صادق الرافعي والحكيم والزيات وزكي مبارك وغيرهم ..

واستطاع المرحوم مصطفى صادق الرافعي أن يحتل مكانة بارزة بين كبار كتّاب عصره وكان له معارك قاسية مع أبرزهم، مثل معاركه مع العقاد وطه حسين وجورجي زيدان وغيرهم من الكتّاب والشعراء ..

والواقع أن مصطفى صادق الرافعي كان موهبة فـذة تتسم

بالشجاعة والقوة والإخلاص والتميز ، وليس أدل على ذلك من أنه وهو في أوائل العشرينيات من عمره أصدر ديوانه الشعري الأول ، وكتب له مقدمة لفتت إليه الأنظار حتى ظن النقاد الذين لا يعرفونه آنذاك ، أن تلك المقدمة من قلم متمرس له خبرة طويلة في هذا المجال ، وأن كاتبها لا بد وأن يكون كبير السن ..

وكان أسلوب الرافعي في كتاباته النثرية . يغلب عليه – من ناحية الشكل – التأثر بالأساليب القديمة كأسلوب الجاحظ وكتاب العصر العباسي وغيرهم ، كان هذا يبدو واضحاً لأول وهلة ، لكن المتعمق في أدب الرافعي يجد أمراً آخر جديراً بالملاحظة والاعتبار ، فالرافعي قد أدخل جديداً في أساليبه الرصينة القوية ، وأول ما نلاحظه في قصصه ومقالاته اهتمامه الفطري المعجز « بالصور النفسية » والغوص في أعماق الإنسان بطريقة عجيبة، لا تتأتى إلا لكاتب حديث أفنى وقتاً طويلاً في الدراسات النفسية وعلم النفس، وهو أمر لم يثبته أحد من المؤرخين بالنسبة لكاتبنا ، إذن فقد كانت براعته في التصوير النفسي نابعة من صدق في النظر ، واخلاص في التعبير ، واستجابة لفطرة يقظة واعية ، ودليل ابتكار وحصافة عند ذلك الكاتب الكبير ، نرى ذلك واضحاً في كتابه « المساكين » وفي قصة « السجين » ، وأيضاً نراه في قصته « الانتحار » ، وفي كتابه

« أوراق الورد » و « حديث القمر » وغير ذلك من القصائد والقصص والخواطر القيمة التي سجلها قلمه الثر .. ولقد حاول الرافعي أن يقف صخرة منيعة في وجه الذين حاولوا النيل من العربية بأساليبها المشرقة ، وبنائها المعجز ، لأن العربية أولاً وأخيراً لغة القرآن ، ولغة التراث الضخم الذي خلفته الحضارة الاسلامية ، وأي عزل أو إهدار لقيم اللغة ، سيعني بالتبعية قطع الصلة بين الماضي والحاضر ، وبالتالي انهيار صرح الفكر الإسلامي الصحيح ، وتشتت أهله ، وخسارة المعركة المصيرية التي يواجهها المسلمون ، ولعل الحدة والتشدد اللذين نلاحظهما في أسلوبه نابعان من ذلك التصور ..

أمر آخر ، هو أن الرافعي كان يؤمن بقوة أن الاسلام ومبادئه وقيمه الخالدة هي وحدها القادرة ، على صياغة حياتنا الجديدة صياغة قوية ، يمكنها الصمود في مواجهة الحياة الحديثة وأفكارها المستوردة ، وجحافل الغزو التي وضعت أقدامها على أرضها ، ولقد سجل ذلك كله في عديد من المقالات والكتب ، وخاصة كتابه « تحت راية القرآن » ، وصرح في أكثر من موضع ، وخاصة مقالته « الأيدي المتوضئة » ، بأن الدعاة الاسلاميين ، هم القادرون وحدهم على قيادة حركة التحرر والخلاص من الاستعمار والتخلف والجهل ، فالعقيدة الصحيحة هي أساس أية حركة اصلاحية ، وهي زاد أية معركة مصيرية ، وبدون العقيدة لا يستطيع أي شعب من الشعوب ، أن يحقق

كسباً ذا قيمة، أو يضمن لنجاحة الاستمرار والتفوق والسيادة..

أمر ثالث ، هو أن الرافعي لم يقف في برج عاجي عالٍ ، يصدر منه بياناته وأفكاره ، بمعزل عن الحياة والناس، وأحداث العصر ، بل إنه عايش المجتمع الذي نشأ فيه ، وفهم البيئة التي خالطها ، وأدرك عللها ومشاكلها، فلم تكن أفكاره التي قدمها، والحلول التي اقترحها نابعة من خيـال عاجز مقهور قاصر وإنما جاءت نتيجة معاناة ، ودراسة للواقـع والتاريخ ، واستجابة لما فاض بـه كتاب الله من آيات وأحكام وشرائع، ضمت أمور الدنيا والآخرة ، واحتضنت شتى العلاقات الفردية والجماعية ، لذا كانت التجربة الحضارية للاسلام حاضرة في ذهنـه بكل صورها وأشكالها، في مجالات السياسة أو الاقتصاد أو التربية أو الجهاد أو الاخلاق ، وأخذ الرافعي يصوغ ذلـك كله في كتب ومقالات تنشرهـا المجلات العربية ، وخاصة مجلة « الرسالة » الشهيرة ، أو يصوغها في أناشيد يرددها الشباب ، ومـا زالوا يرددونها حتى يومنا هذا ، وكلهـا تتغنى بحب الله والوطن والناس، والدعوة الى حياة الكرامة والمجد والتضحية والفداء..
أمر رابع .. هو أن الرافعي في أدبه كان متعاطفاً مع الضعفاء والمساكين والمقهورين يصور عالمهم التعس في مرارة ، ويذكر أحزانهم في ألم ، ويعايش آمالهم الغاربـة في شجن ، ويلتمس لضعفهم الأسباب ، ويجعل من مأساتهم فجيعـة تحرك القلوب الجامدة ، والمشاعر المتبلدة ، كان إنساناً يبكي آلام أخيـه

الانسان في صدق وإخلاص .. ولذا كان حبه من ذلـك النوع الحزين الذي يتفق والفجيعة الكبرى التي ألمت بعالمنا الاسلامي، ومزقت آماله ، يقول في إحدى قصائده :

من للمحب ومـن يعينـه
والحب أهنـؤه حزينـه

أنا ما عرفت سوى قساوته
فقولـوا كيف لينـه ؟

ويمكننا أن نقول أن كتابات الرافعي قد مرت بمرحلتين : المرحلة الاولى وهي التي تتسم بقدر من الصعوبة ، بحيث تحتاج قراءتها لغير قليل من التأني وإمعـان النظر حتى تُفهم الفهم الصحيح ، وهذا يبدو جلياً في كتاباتـه الاولى « كالمساكين » و « أوراق الورد » و « حديث القمر » ، أما المرحلة الثانية ، فهي مرحلة الكتابات الواضحة السهلة التي لا يصعب فهمها ، أو تدق معانيها بصورة تكاد تكون غامضة، في هذه المرحلة، بدأ الرافعي يكتب في الصحف والمجلات الاسبوعيـة ، ويتناول قضايا وموضوعات تشغل بال الناس والمجتمع ، عندئذ زاد عدد قرائه، واتسعت شعبيته، وأصبح له الكثير من الاتباع والمؤيدين، ويبدو أن موضوعات الساعة التي فرضت نفسها ، قد احتاجت لذلك الأسلوب المناسب ، فسجلها بأسلوب حي متدفق دون إسفاف أو ركاكة ، هـذه المرحلة تبدو واضحة في كتابـه

« وحي القلم » الذي جمع فيه العديد من المقالات الاجتماعية والسياسية ، وفي كتابه « تحت راية القرآن » وفي كتاباته النقدية عن تاريخ الأدب العربي ، وكتاباته التاريخية ، وفي مختلف القضايا التي أثارها أعداء الاسلام من مبشرين ومستشرقين متحيزين وممن وقعوا في إسار الغزو الفكري الماكر من الكتاب المسلمين ..

ولقد كان رحمه الله حاداً في حواره ، يهاجم بشدة وعنف ، كل من اعتقد أنه ينال من العربية والاسلام ، أو يفتئت على على الحقيقة ، أو يزيف وقائع التاريخ ، أو يرميه بالخطأ ، ولعل هذا هو السبب ، في احتدام المعارك بينه وبين بعض معاصريه من الكتاب والنقاد ، وعلى رأسهم الكاتب الكبير عباس محمود العقاد ، مما جعل الرافعي يشن عليه حملة شعواء في كتاب شهير أسماه « على السفود » ، ومعروف أن السفود هو القضيب المعدني الذي يشوى عليه اللحم.. هذا العنف في الجدل أو الحوار قد أخفى كثيرا من الجوانب العظيمة في كتاباته وكتاباتهم ، لكن هدوء المعركة ، وزوال الحدة ، قد أعاد الاشراق الى النواحي الايجابية في فكر الرافعي وفكر اقرانه ، الذين كانوا يهدفون عموماً الى الوصول الى الصورة المثلى النافعة لبلادهم ..

وأياً كان الأمر ، فإننا نستطيع أن نقول أن الرافعي قد

أدى رسالة كبرى في معركته الفكرية الواسعة ، وذلك ذوداً عن اللغة العربية وأصالتها ، ودفاعاً عن الاسلام وقيمه الغالية، وحضارته الخالدة ، وإنـــه قرر في معظم كتاباته أن « الحل الاسلامي » هو الحـل الصحيح لمشاكل وطنه ومشاكل العـالم الاسلامي كله ، وجعل من هـذا الالتزام الاسلامي نهجاً يسير على هداه ..

لكن ما معنى «مؤامرة الصمت » تلك التي تقف اليوم إزاء تراث الرافعي العريق ؟ أهي جـــزء من المؤامرة الشاملة ضد الاسلام والاسلاميين في هـذا العصر ؟؟ أهي مخلب من مخالب الغزو الفكري الذي يأبى إلا أن يطمس الحقائق النيرة الباهرة في تاريخنا الاسلامي المعاصر ؟؟

إن أدب الرافعي يجب أن يعود الى الجيل الجديد كسلاح يدافع به عن قيمه الأصيلة ، ويضرب بـــه في قلب الالحاد والصهيونية والاستعمار ، ويجب أن تؤخذ منه منتخبات تدرس لأبنائنا في المدارس ، لعلها تكون أجدى نفعاً من « قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل » ، لأن القيم التي آمن بها الرافعي ودافع عنها ، كفيلة بأن تكون « كالطعم الواقي » لهذه الأجيـال من الانحراف والتسيب ، والتشبث بأذيال البدع المستوردة . . ألا ما أكثر المناهج التعليمية والتربوية التي تنأى كثيراً عن واقعنا وأهدافنا ، وتناقض المبادىء الخالدة التي قـــام على أساسها

نضالنا الطويل ، وتاريخنا الزاهر !!!

ولماذا لا يتفرغ بعض مؤرخينا وكتابنا لدراسة تاريخ هذا الرجل وعصره والتيارات التي أثرت فيه وأثر فيها ، إني لا أعرف – حسبما أظن – إلا كتاباً للمرحوم سعيد العريان – تلميذ الرفاعي – وكتاباً آخر للاستاذ أبو ريه أحد تلامذته أيضاً ، ودراسة ثالثة أصدرها « كتاب الهلال » ، ودراسة جامعية رابعة لأحد طلبة الدراسات العليا .. لكن مصطفى صادق الرافعي لم يزل أرضاً بكراً لكثير من الدراسات الجادة المنصفة .. إن رافع لواء « الأيدي المتوضئة » يجب أن ينال حقه من الاهتمام والتقدير .. ولن يتم ذلك إلا على أيدي رجال يؤمنون بفكر الرجل ودوره الرائد في معركة النصر..

« علي باكثير » .. على طريق الالتزام

كان « علي باكثير » رحمه الله ، علماً من أعلام الأدب الاسلامي المعاصر ، ورائداً من رواده الكبار ، ولقد ربطتني به صلة وثيقة في سنوات عمره الأخيرة ، فعرفت الكثير عن أخلاقه وفنه وحياته الحافلة بالدأب والوفاء والصدق ، عاش في حضرموت واندونيسيا ومصر ، واطلع على كثير من الآداب العالمية من خلال اللغة الانجليزية التي كان يتقنها ، فقد ترجم لشكسبير ، وكتب القصة والرواية والمسرحية والشعر ، وفي المسرح كتب الكوميديا والتراجيديا ، وكان مولعاً بتصفح التاريخ الاسلامي والعربي ، عاشقاً لبطولاته وحضارته العظمى ، وكتب القصة السينمائية ، فجاء فيلم « سلّامة » التي قامت ببطولته السيدة أم كلثوم والفنان يحيى شاهين ، فجاء هذ االفيلم من أنجح وأجمل الأفلام المبكرة في تاريخ السينما العربية .

ولقد روى لي « علي أحمد باكثير » أنه كان في بداية حياته

يريد أن يكون من رجال « الحديث » فأخذ يدرس علم الحديث ورواته ومراتبه ، وقطع في هذا المضمار شوطاً بعيد المدى ، لكن الأقدار أرادت له أن يتجه صوب الأدب ، فكان أن قدم الكثير من الأعمال الأدبية الفذة ، ذات الصلة الوثيقة بالقيم الاسلامية والتاريخ الاسلامي وشخصياته المميزة ، التي كان لها أعمق الأثر في مجريات الأحداث الكبرى .

وكان أديبنا الكبير واحداً من « لجنة النشر للجامعيين » التي اشترك في تأسيسها نخبة من كبار الكتاب مثل عبد الحميد جودة السحار ، ونجيب محفوظ ، وسيد قطب ، ومحمد عبد الحليم عبد الله وغيرهم ، وهي اللجنة التي تبلورت في النهاية ، وانجبت « مكتبة » مصر الشهيرة ، بشارع الفجالة بالقاهرة ، والتي تخصصت في طبع ونشر وتوزيع الكتب الأدبية والدراسية الجيدة .

ولقد قلنا أن باكثير قد ترجم لشكسبير في باكورة حياته ، ويلاحظ أن هذه الترجمة ، كانت نمطاً فريداً ، فقد ترجمها شعراً حديثاً ، وبذلك يكون باكثير أول من كتب ما يسمونه بالشعر الحديث في أدبنا المعاصر ، وكتب باكثير قصة « وإسلاماه » التي طبعت عدة مرات ، وقررت على طلبة المدارس لسنوات طويلة ، وجلبت له الشهرة والذيوع ، والقصة

تصور حقبة فريدة من أحقاب التـــاريخ الاسلامي ، وصمود الاسلام في وجه الزحف التتري ، وذوبان النعرات الطائفيـــة والشعوبية والعنصرية ، وبروز الشخصية الاسلاميـــة التي قهرت عوامل القهر والغدر والفنـــاء ، وخرجت من المعركة قوية صامدة ، لا تنال منها الأحداث، ولا تهزها العواصف الهوجاء . كما كتب بعدها قصة « سيرة شجاع » ، وهي تتناول موضوعاً مشابهاً ، بالاضافة الى المسرحيات القصيرة الاسلاميـــة ذات الفصل الواحد أو الفصلين والتي كان يكتبها خصيصاً للمجلات الاسبوعية والشهرية .. كما كتب مسرحية « هاروت وماروت» اللذين ورد ذكرهما في القرآن الكبير ، وفيها دفاع عن قوة الانسان وكرامته ، وصموده – بإرادته القوية – ضد النزوات والاهواء والمطامع .. كما كتب مسرحية « ايزيس وأوزوريس» وهي أسطورة فرعونية تناولها تناولاً حديثاً ، أبرز فيها الوفاء الأسري ، وقمة الحب الإنساني ، وصبر الإنسان في مواجهـــة الأقدار ومـــا تأتي به من أحداث ، واشراق الفكـــر والروح بالحرية الحقيقية ..

ولم يعتزل « باكثير » البيئة المعـــاصرة التي يعايشهـــا ، أو يتجاهل مشاكلها وأحداثها ، فقد كتب مسرحية « جلفدان هـــانم » ، وهي كوميديا جميلة ، تنـــاولت بالنقد والسخريـــة أوضاعـــاً رثة مهترئة ، وأبانت عن كثير من وجـــوه القصور

والزيف والغرور في ناحية من نواحي الحياة الاجتماعية القائمة ، وفعل نفس الشيء في مسرحيات كثيرة مثل « حبل الغسيل » وغيرها ..

ثم كانت القضية الهامة الحاسمة « قضية الشيوعية » إن علي باكثير المسلم ، المؤمن بقيم السماء ، يرفض بشدة تلك التيارات الملحدة الزاحفة نحو ديارنا ، وباكثير الابن البـــار للحضارة الاسلامية ، تلك التي غذته بلبانها ، وأمدته بحكمتها وصدقهـا وشموخها ، لم يكن ليقف مكتوف اليدين ، ازاء ذلك الخطر الذي يهدد أغلى ما يؤمن به من مبـــادىء وسلوك وأفكار ، فكان كتابه « الثائر الأحمر » صيحة أدبية رفيعة في وجـــه الغرور والحقد والمروق ، كما كان إيقاظاً للنائمين من أبناء الجيل الجديد الذي كاد اللون الأحمر ، البراق بالترهات والأكاذيب ، أن يضمهم تحت جناحه الغادر ...

ولعل هذا الأمر تسبب لباكثير في التعرض للاضطهـــاد والمعاناة والجحود ، ففي فترة من الزمن تسلل « الملحدون » إلى الصحف والمجلات ومنابر الإذاعات والتليفزيونات ، فكان أن دبروا لباكثير حملة ماكرة من التشويه أحياناً ، أو التجاهل أحياناً أخرى، وكانوا يغمزون نحوه في مجالس الأدب ومنتدياته ويقولون عنه في سخرية « إسلامستان »، حسبما روى لي بنفسه..

وكان رحمه الله يضحك في هدوء ، ويبدو بريق السعادة والثقة في عينيه خلف نظارته الطبية البيضاء ، ويقول « إنه لشرف عظيم لي أن أتهم بالإسلامية فيا أقدمه من أدب .. » .

ولم تستطع هذه القوى الشريرة أن تقضي على مجد باكثير الأدبي ، فقد أخذ اسمه يتردد في أنحاء العالم العربي والإسلامي ، وأصبح عَلَماً على مدرسة بعينها في الفن والفكر والأدب ، وأصبح الآباء والامهات ، يسارعون بتقديم مؤلفاته لأبنائهم وبناتهم ، بديلاً عن تلك القصص الجنسية ذات الإثارة المدمرة، ولم تنجح مؤامرة « الصمت » أو « التشويه » في إسكات صوت باكثير ، أو التقليل من شأنه ، أو إنقاص عدد قرائه ، وكيف ذلك بعد أن أصبحت مؤلفاته توزع على كثير من طلبة المدارس الثانوية ، وأصبحت موجودة في كل بيت.. في القاهرة ودمشق وبغداد والجزائر وعواصم العالم العربي والاسلامي قاطبة ، بل في جميع القرى والنجوع والكفور .. إن الأصالة والصدق يفرضان نفسيهما ، ويقاومان عوامل القهر والفناء مهما كانت شراسة المعركة التي تريد أن تدمر الإسلامية وأعلامها .. ولذا عاش باكثير ، ومات الأقزام الحمر الذين استوردوا الأقنعة الزائفة ليغطوا بها وجه الحياة الفكرية الصحيح ..

وفي مايو عام ١٩٦٠ شاءت إرادة الله أن ينال باكثير جائزة

عن مسرحيته الممتازة « دار ابن لقمان » ، كما نلت أنا جائزة عن روايتي « اليوم الموعود» وذلك في المسابقة الكبرى التي أجراها « المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب » بمناسبة الحروب الصليبية ، وانتصار المسلمين على جيوش « لويس التاسع » ملك فرنسا ، وأسره في دار ابن لقمان بالمنصورة ، وقضينا معاً ثلاثة أيام في المنصورة ، حيث أقيم احتفال تاريخي كبير تسلمنا فيه الجوائز من رئيس الجمهورية آنذاك (الرئيس جمال عبد الناصر) وقد علمت من باكثير أنه قضى في المنصورة سبع سنوات كمدرس في مدرستها الثانوية ، كانت من أجمل أيام حياته ، ثم أخذ — رحمه الله — يتحدث عن أهمية إبراز القيم الإسلامية في أدبنا الحديث ، وفتح أعين الأجيال الجديدة على ما فيها من كنوز لا مثيل لها ، والتصدي لتيارات الغزو الفكري الآثمة ، وكان يحاول أن يرسم صورة صادقة لفساد الحياة الفكرية وخللها في تلك الفترة ، وأثر ذلك على مستقبل الأجيال والأوطان ، وضرورة مجابهة تلك التصورات الزائفة بالفن الصادق الصحيح ، وبالأدوات الفنية المستحدثة ، وباستيعاب الجديد في الأشكال الفنية ، وملئها بالمضامين الفكرية السليمة ..

وفي عام ١٩٦٢ كنت معه في رحلة إلى قطاع غزة ضمت عديداً من الكتاب والشعراء والمفكرين والممثلين ورجال الاذاعة والتليفزيون من رجالات سوريا ومصر والعراق ولبنان،

وذلك للاطلاع على أحوال اللاجئين الفلسطينيين على الطبيعة ، والكتابة عن تلك القضية المصيرية ، في الاعمال الادبية الحديثة وشكا رحمه الله من أنه يعاني من قصور في الدورة الدموية للقلب ، وأنه يتعرض لنوبات قلبية من وقت لآخر ، ومع ذلك فقد كان يفكر في انجاز عمل أدبي كبير هو « ملحمة عمر » ، وكانت لائحة تفرغ الادباء والفنانين قد صدرت في ذلك الوقت ، وسرعان ما تقدم بطلب يرجو فيه من اللجنة الموافقة على « منحة تفرغ » لمدة عامين كي ينجز هذا العمل الضخم ، وكانت لجنة التفرغ مشكلة من عدد من كبار الكتاب والمفكرين أذكر منهم الدكتور طه حسين ، وعباس العقاد ويحيى حقي وغيرهم ، وقد وافقت اللجنة على مشروعه فوراً ، وبدأ اجازة من عمله لمدة عامين ، براتب بسيط مقداره خمسة وسبعون جنيهاً مصرياً ... وفي نهاية العامين ، قدم « ملحمة عمر » في عمل مسرحي كل (١٦ جزءاً) حسبما اعتقد ...

كانت هذه الملحمة من اكبر وأهم الأعمال المسرحية التي كتبها علي أحمد باكثير ، واستطاع رحمه الله أن يقدم صورة حية نابضة بالقوة والايمان والصدق والايثار والتضحية والحكمة لأمير المؤمنين وقائد المسيرة الاسلامية الرائد « عمر بن الخطاب » والملحمة غاصة بالشخصيات الاسلامية والتاريخية التي رسمت في

براعة ودقة ، ملتزمة بأبرز الحقائق التاريخية ، دون تجاهل لقواعد الفن المسرحي بمفهومه الحديث ، وفي الملحمة انعكاس للصورة الحضارية الفذة للاسلام في أقوى وأقوم أيامه ، وفيها تعبير بارع عن الصراع الخالد بين قوى الخير والشر ، بين الحشود الإسلامية المدعمة بقوة العقيدة ، وبين أباطرة الروم وأكاسرة الفرس ، ولم يغفل كاتبنا الكبير رحمه الله عن إبراز الحياة الاجتماعية هنا وهناك ،وعن التناقض المريع بين مجتمعين.. مجتمع ينمو ويترعرع ويسود ، ومجتمع يتضاءل ويتآ كل وينخر فيه الفساد والتحلل والتمزق .. كان هذا الصراع الحضاري الجذاب من أجل ما رسمته براعة علي باكثير رحمه الله ..

وقضى باكثير سنواته الأخيرة على شاطىء النيل بالمنيل ، يتطلع كل يوم من شرفته العالية إلى أمواج الحياة تتدفق من حوله ، يقرأ فيها حكمة الأزل ، ويحاول أن يكشف الستار عن بعض أسرار الوجود، وكثيراً ما كان يستقبل بعض أقربائه أو أصدقائه من « حضرموت » ، فيحدثهم بنبرته المنخفضة ، حديث المخلص المتواضع ، ويدلي برأيه في كثير من القضايا الهامة ببساطة غريبة ، فإذا تدبرت ما يقول وجدته قد أصاب كبد الحقيقة دون ضجيج أو غرور ...

ويوم أن حملت الصحف نبأ وفاته ، وقد كنت هنا في دولة

الإمارات منذ سنوات ، تناولت القلم ، وكتبت عنه سطوراً قليلة في جريدة الاتحاد .. وسقطت من عيني دمعة على الرجل العظيم الذي لم ينل حظه من التقدير والتكريم .. مات باكثير .. وخلف تراثاً عظيمــــاً من الأدب العظيم وإن لم يخلف ولداً ولا بنتاً .. رحم الله باكثير ونفعنا بأدبه وخلقه .. وجعلنا نسير على طريق الاسلامية الذي أفنى حياته فيه .

الحيَـاة .. وَالحُبّ ..

الحب – بمعناه الحقيقي الشامل – عاطفة نبيلة ، وشعور رقيق ، وسلوك مرهف ، وإثراء للروح والوجـــدان بأعظم الأحاسيس وأروعها ، وهو بذلك سر الوجود ، وروح الحياة، والنسمة العليلة المنعشة في صحراء المتاعب والآلام والصراع ، يتجلى ذلك كله في آلاف الصور الحيـة التي نشهدها في حياتنا اليومية، في عيون الآباء والأمهات، وعلى وجوه الأطفال الصغار الأبرياء ، وحتى في لمسات الحيوانات لصغارهـا ، وفي مشاهد العطف الإنساني المتألق بين القوي والضعيف ، والغني والفقير ، والصحيح والعليـل ، ولولا الحب لأقفرت الحيـاة من كل معنى نبيل ، وجفّت ينابيع الخير والرحمة على الأرض ، واستحالت الدنيـــا الى جحيم لا يطاق ، ولأصبح باطن الارض خير من ظاهرها ..

والأشقياء في هذا العـالم هم الذين ضلوا الطريق الى الحب ، وأخطأوا مورده العذب ، فعاشوا حيارى قلقـــين ، يمزقهم

الخوف ، وتأكلهم الأنانية ، وتشقيهم العزلة والوحدة والسأم.. فالحب هـــو النغمة الحلوة الشجية التي تبعث الأمل والسعادة والفرحة الغامرة في قلوب بني البشر ، وتشعل فيهم الرغبة في الحياة والكفاح والتضحية والحرية ..

ولم تستطع دعوة من الدعوات ، أو عقيدة من العقائد ، أن تسيطر على أرواح الناس وأفكارهم ، وتحقق لهم النصر والنجاح والسعادة ، إلا إذا اتخذت الحب طريقاً لهـا ، وجعلت منه الرباط المقدس الذي يجمع القلوب والعقول في صعيد واحد .

وإذا بحثت عن سر التعاسة التي تشمل مجتمعاً من المجتمعات، أو تلف تحت ردائهـــا الأسود أمة من الأمم ، إلا وكان غياب الحب ، وانحسار أثره ، هو السبب الكامن وراء تلك التعاسة ، والشعوب التي اتخذت الحقـــد والكراهية والتصفية الدموية أسلوباً في سياستها ومناهجها ، هذه الشعوب فقدت فعلاً المعنى العظيم للحياة والإخاء الإنساني ، برغم كل ما تدعيه من رفاهية وتقـــدم علمي واقتصادي واجتماعي .. لأن جوهر الحب لا يتغير بتغير الأزياء والألوان والأجناس والأديان والطبقات.

لكن ـــ للأسف ـــ أصبح الحب في عصرنا صورة تائهــة ضالة ، وأصبح ضيق الأفق ، وقصير النظرة ، ملوثاً بالأهواء الدنيوية ،والمطامع الرخيصة ، والمعاني الخاطئة ، بحيث فقد أثره ،

وغطى على جوهره ، وأصبح مجرد إسم يردده الناس دون فهم أو تمثل لحقيقته الرائعة ..

لقد انحصر معنى الحب في الرغبات الجنسية اللاهبة المؤقتة، أصبح رمزاً للانحلال والفساد ، وعنواناً للجشع والأنانية ، ومجالاً للسيطرة والتملك وإشباع الغرائز ، وأحياناً يكون الحب صورة صارخة للنهم المادي ، وجمع المال الذي أصبح – والعياذ بالله – إلهاً يعبد في كثير من بقاع الارض ، وقد يكون الحب مركزاً في حيازة السلطة القاهرة ، التي تدوس أغلى القيم والمشاعر ، تستذل عباد الله ، لإرضاء شهوة مريضة في نفس إنسان معتل الروح .. وقد يتحول حب الوطن الى عنصرية مقيتة ، أو عصبية عمياء ، تنزل بالانسان الى أحط الدرجات ..

هذه الصورة الشاذة المنحرفة للحب ، قد روّجت لها الفنون الرخيصة في السينما خاصة ، بحيث استقر في أذهان الناس – والناشئة خاصة – أن الحب هو ذلك السعار الجنسي أو السعار المادي ، أو قهر الآخرين من أجل أن ينعم فرد بذاته أو مجموعة معينة من الناس ..

ولقد حرصت الرسالات السماوية على تأكيد معنى الحب الحقيقي ، وتأصيله في نفوس الناس كنقطة انطلاق نحو حياة

أفضل وأسعد ، وفي ظل هذا الحب الكبير ، نزلت شرائع الله ، وتفانى المؤمنون في إبلاغ الدعوة ، وضحوا بأرواحهم وأموالهم وراحتهم كي يسود الحب ، ويتأصل الإخـــاء ، وينتشر العدل والرخاء ، وينعم الجميع تحت لواء الحرية والخير والصفاء .

ولقد وضع رسول الله ﷺ المعنى الشامخ للحب حين ربطه بالايمان والعقيدة حيث قال : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما » ، فالحب الأسمى حب الله ورسوله ، وهو في هذا الإطار حب يضم الكثير من الالتزامات والواجبات ، أولها الرضى بقضاء الله وقدره ، واتباع ما أتى به سبحانه من أوامر ونواهٍ ، وطاعة تامة لآدابه التي جعلهـــا أساساً لإسعاد الفرد والمجتمع ، « قل فاتبعوني يحببكم الله » ، فالسير على طريق الله ورسوله هو التفسير العملي للحب الإلهي . وفي معنى الحديث القدسي : ما يزال عبدي يتقرب اليّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يسعى بها .. إنهـــا صورة للحب الشامل الكبير ، الذي يجعـل من المخلوق كائناً سماوياً شفافاً ذا قدرات هائلة لا تحدها حدود ، ولا تحجبها غواش أو حوائل .. ثم يأتي ذلك الحب في الله ، حيث يتآخى الناس في ظل العقيدة الإلهية التي جمعتهم تحت لوائها ، ونتيجة لهذا الحب

يقول الله يوم القيامة كما جاء في الحديث القدسي : أين المتحابون فيّ ، اليوم أظلهم تحت ظلي حيث لا ظل إلا ظلي » .

وترعرعت شجرة الحب الاسلامي ، وتسامقت فروعها حتى شملت السماء والارض ، واحتضنت ظلالها ألوان الحب المختلفة. الحب الأسري الذي يربط بين الآباء والأبناء وبين الرجل وزوجته ، والأخ وأخيه ، والجار وجاره ، والحاكم والمحكوم ، والغني والفقير ، بل والمسلم وغير المسلم في ظل شروط وآداب واضحة لا لبس فيها ولا غموض ، والسيد وخادمه ، والمنتصر والمهزوم ، بل تخطى ذلك الحب حدود الانسان ، الى حب الحيوان ، والرفق به ، والحدب عليه ، « ودخلت امرأة النار في قطة حبستها ، فلا هي أطعمتها ، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الارض » ، كما غفر الله لإنسان سقى كلباً كان يقتله الظمأ ، بل إن نبي الله عيسى عليه السلام جاء عنه أنه قال « أحبوا مبغضيكم » ..

وكل تلك الألوان الجميلة من الحب ، على مختلف صورها ، هي في الواقع قطرات من ذلك الحب الكبير ، الحب الإلهي ، الذي كان له صفحات خالدة في الآداب الاسلامية ، وتاريخ الصالحين والعابدين والمؤمنين ، ذلك الحب الخالص المبرأ من الهوى والغرض ، والتي عبرت عنه رابعة العدوية بقولها :

أحبك حبين : حب الهوى
وحباً لأنك أهل لذاكا

فأما الذي هو حب الهوى
فشغلي بذكرك عمن سواكا

وأما الذي أنت أهل له
فكشفك لي الحجب حتى أراكا

ويقول أحد كبار العبّاد :

أدين بدين الحب أنّى توجهت
ركائبه ، فالحب ديني وإيماني

فالحب لدى المسلم عقيدة وخلق وسلوك ، هو الحياة بكل نواحيها وصورها ، هذا النسيج المقدس ، هو الذي ضم سلمان الفارسي ، وصهيب الرومي ، وبلال الحبشي ، وأبا ذر الغفاري ، ورسول الله محمد بن عبد الله ، هذا الحب كان اللبنة الاساسية في البناء الحضاري الخالد الذي أقامتـــه المبادىء الاسلامية العريقة ، فدخل الناس في دين الله أفواجــاً ، وانهارت أمــام زحفها قلاع الرومـــان ، وحصون فارس ، لان تلك القلاع والحصون ما قامت إلا على قواعد الاستغلال والعبودية لغير الله ، والظلم والمفاسد ، ومشاعر الخوف والحقد والقهر ، وهكذا

كانت حضارة الأسلام هي حضارة « الحب الكبير » بمعناه الشامل ، وبانعكاساته الايجابيــة المبنية على علاقات الافراد والجماعات ..

ثم أن ذلك الحب المتبادل بين الله وعبيده حب فريد خالص، مبرأ من كل هوى وغرض ، وليست المصائب أو الكوارث التي تحل بالانسان في بعض الاحيان نقضاً لهذا الحب ، أو خروجاً على تقاليده ، لان الله ـ كما جــاء في الحديث الشريف ـ إذا أحب عبداً ابتلاه ، والابتلاء اختبار منه سبحانه ، وقد يكون تكفيراً عن بعض ذنوبه ، أو تخفيفاً لمصيبة أكبر كانت توشك ان تحل به ، فكانت رحمة الله في التخفيف ، هكذا يفهم المسلم نكبات الدهر ، ونوازل الزمان ، أو ابتلاء الله ، لان حب الله لعباده المؤمنين أمر لا شك فيه ، ولا تزعزعه كارثة تحل ، أو مصاب يحط ، فهو حب فوق ذلك كله، يتسامى فوق الاحداث ومضاعفاتها .. والمؤمن يثاب عن كل ما يلم به ، حتى الشوكة يشاكها ، له بذلك ثواب ..

ولقد كانت قوة الحب وشفافيته في قلوب المؤمنين تجعلهم يتحرزون من أي تصرف فيه شبهة من قسوة أو ظلم ، مما جعل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يقول قولته الشهيرة : « والله لو عثرت بغلة في العراق لسئلت عنها لِم لم أسوّ لها الطريق ؟؟»

والآن ماذا نرى في عالمنا اليوم ؟! إن صور الصراع الدامي، ونعرات الشعوبية والعنصرية والعصبية الخرقاء، ما هي إلا أعراض لعلة ذلك العصر ، تلك العلة هي الحقد ، ومـــا يتفرع عنه من جور ومظالم وانحرافات ، فالحروب في كل مكان ، سواء اكانت حروباً بالسيف أو القنبلة أو القلم ، والصراعات تجتاح المجتمعات المتقدمة ، والمتخلفة ، سواء في أمريكا أو بريطانيا أو أمريكا اللاتينية أو أفريقيا أو آسيا ، صراعات بين أصحاب الاديان المختلفة ، وصراع بين القوميات المتباينة ، وصراع بين المذاهب السياسية المتعصبة .. وفي كل يوم يسقط البشر صرعى الغـدر والاغتيال ، والحروب الصريحة والخفية ، ويخسر الناس الملايين في استخدام آلات الدمار ، وتدمر المنشآت والمؤسسات النافعة في خرق أبله ، من أجل أطماع جشعة ، وأحقاد صغيرة ..

إن غيبة الحب بمعناه الحقيقي عن عالمنا المعاصر هو سر شقائه وانحداره، وما نراه من صور الوفاق الزائف، أو الحب الرسمي، أو المجاملات الفردية والجماعية ، مـــا نراه من هذا كله ليس سوى خداع ورياء ونفاق ..

ولو عرف العالم طريق الحب ، لعرف طريق النظام والقانون والاخوة ، ولحلت « الكلمة الطيبة » محل « الطرود الناسفة »، ولتحولت الخرائب إلى بساتين ، والحروب الطاحنة إلى مواكب للفرح والسعادة والإخاء الإنساني .. ولاستحال سباق التسلح

الرهيب ، إلى تعاون في إيجـــاد لقمة العيش للجياع ، والعلاج للمرضى ، والعلم للجهلاء ، ولاستحالت أوكار المؤامرات والغدر إلى محافل للصفاء والبناء والعبادة ...

وليس بالخبز وحده يحيا الإنسان ..

وإذا أردنا أن نكتب وصفة طبية لعالمنـــا المعاصر العليل التعس ، فلن نكتب فيها سوى دواء واحد هو « الحب » ...

الإسلاميَّة .. في شِعْر أمير الشعراء

إن عظمة الشاعر تكمن فيما يتناوله شعره من قضايا وأفكار ، وذلك في إطار الشكل الفني الناضج ، وبالأسلوب القوي المعبر المناسب ، وكلما التزم الشاعر بمبادىء وقيم عظيمة مؤثرة ، كان فنه أروع وأفضل ، وعلى الرغم من أن عالم شوقي الشعري كان عالماً رحباً ، غنياً بالكثير من الصور الحية النابضة ، إلا أن حيزاً كبيراً منه ، قد تخصص في الفكر الاسلامي ، وعلاقته بالحياة والناس وحركة التاريخ قديماً وحديثاً ، في صورة مباشرة لا لبس فيها ولا غموض بالإضافة إلى سيطرة المعاني الاسلامية على أغلب شعره بطريقة أخرى غير مباشرة ، نراها في أحكامه العامة، وفي أخلاقيات الشخصيات التي يتحدث عنها، والأحداث الكبرى التي يتعرض لها ..

ولعل قصيدة « نهج البردة » وقصيدة « الهمزية »الشهيرتين، تقفان في مقدمة شعره الاسلامي المباشر ، الذي يتعرض فيه

للإسلام بغــير قليل من الدقة والتفصيل ، مستخدماً أساليب الدراسة والحوار البناء ، والأدلة المنطقية التي سادت في عصره آنذاك ، ذلك العصر الذي شهد دراسات اسلامية حديثة جادة اشترك فيها كبار الكتــاب والشعراء ، وأيضاً كتاب القصة والمسرح ..

ولقد حظيت النزعة الاسلامية في شعر شوقي باهتمام الكثيرين من النقاد والمؤرخين ، لدرجة أن أحد اساتذة الجامعة قد أفرد لهــا كتاباً ضخماً ، كما أن كتاب التراجم والسير الذين كتبوا مؤلفات عن شوقي أو عن الشعر المعاصر لم يتجاهلوا تلك الحقيقة الناصعة، بل إن مسرحيات شوقى العديدة لم تغفل هذه النواحي الهامة ، حتى التاريخية منها سواء ما كتب عن العصر الفرعوني أو الروماني أو الأموي ، نشعر من خــلال الحوار الشعري الفياض المعبر بالمعاني الاسلامية الرقراقة التي لم يستطع الكاتب أن يتخلص من آثارها حتى في عصور مـا قبل الإسلام .. ولا شك أن سيطرة المبادىء الاسلامية ، والقيم الروحية على فكر الشاعر وقلبه ، أمراً مفروغاً منه ، بـــل مؤكداً بالكثير من الشواهد التي لا يتسع المجال لعرضها (أنظر كتابنا: «شوقى في ركب الخالدين » ، وخاصة فصل : « الاسلام في شعر شوقي ») ولقد كان لشوقي قدرة هائلة على التعبير المركز الذي يزخر بالكثير من المعاني الكبيرة ، لنقرأ معاً هذا البيت من همزيته الرائعة عن الإسلام :

الدين يسرٌ ، والخلافـــة بيعةٌ
والأمر شورى ، والحقوق قضـــاءُ

لقد استطاع أمير الشعراء أن يلخص فلسفة الحكم في الإسلام في بيت واحد ، فالإسلام ، رسالة الله الأخيرة إلى الأرض ، كله يسر ووضوح، لا يتنافى مع طبيعة البشر وواقعهم ، يتفق مع قدراتهم وفطرتهم ومصالحهم ، وليس هناك حاكم يفرض نفسه ، فالخلافة بالبيعة ، والقرارات التي تتخذ، والإجراءات التي توضع، تنبع من قاعدة الشورى ، حيث حرية الرأي والتعبير، وحيث النزول على رأي المتخصصين المخلصين ، والعدل هو أساس القضاء والحكم ، مهما تكونت وتنوعت الأساليب ، تلك هي القواعد العامة للحكم، والتي يسردها الشراح والمشرعون في مئـات بل آلاف الصفحات ، كلها جاء بها شوقي في كلمات قصار ، ورفعها شعاراً عالياً خفاقاً عبر التاريخ الاسلامي الزاهر .. والحرب في الإسلام لا تقوم بسبب الرغبـــة في السيطرة والغزو ، وتحقيق الأمجـاد المادية أو الدنيوية ، أو إذلال الشعوب ، واستنزاف ثرواتها ، وتحويــل الأفراد إلى عبيد أو رقيق ، الحرب في نظر الاسلام جهاد في سبيل الله ، وإحقاق للحق ، وفتح الطريق أمام الناس كي يختاروا عقيدتهم ، دون كبت أو قهر ، يقول شوقي مخاطباً رسول الله ﷺ :

الحرب في حق لديك شريعـــة
ومن السموم الناقعـــات دواءُ

من هنا كانت القوة العددية وقوة العدة ليست هي الأساس الأول ، بل هناك العقيدة والايمان وقدرة الله ، فالقلة المؤمنة ، تهزم الكثرة الكافرة ، والله يمد المؤمنين بجنود قد لا يراها الإنسان ، وهي دعم وتأييد للمؤمنين الذين يخوضون المعمعة في سبيل الله ، من أجل اعلاء كلمته ، يقول شوقي مصوراً غزوة بدر ، ومؤكداً المعاني التي وردت في القرآن بخصوص هذه المعركة :

يومٌ كبدر وخيل الحق راقصةٌ
على الصعيد ، وخيل الله في السحب

ويؤكد شوقي في شعره على أن الصبر والمثابرة، وأن التضحية والإقدام في معركة الحق الأكبر ، هي السبيل لإحراز النصر ، وقهر الأعداء ، وإعلاء كلمة الله :

وما استعصى على قومٍ منالٌ
إذا الإقدام كان لهم ركاباً

كانت هذه الصيحات تنطلق في شعر أمير الشعراء ، فيتردد صداها في جنبات العالم الاسلامي الشاسع ، الذي وقع فريسة الاستعمار والقهر والاستغلال ، وكان يهيب بجموع المسلمين ، كي يحطموا أغلالهم ، وينطلقوا من إسارهم ، وذلك كي يخوضوا معركتهم الكبيرة ، في ضوء التعاليم الإسلامية الرائدة، وأن يلتزموا

بالمبادىء التي جاء بها دينهم ، سواء في حربهم أو سلمهم ، وفي معاركهم الحربية أو الاجتماعيــة أو السياسية ، وعلى الرغم من أنه كان « شاعر الأمير » من ناحيــة أو شاعر القصر ، إلا أن ذلك لم يمنعه من التغني بالحرية والحكم الديموقراطي والشوري ، حيث الشرعية واحترام الدستور ، لذا نراه – حتى في معرض المديح – يقول في نونيته الشهيرة :

زمـــان الفرد يا فرعون ولىّ
وزالـــت دولة المتجبرينـــا

وأصبحت الرعاة بكـــل أرض
على حكم الرعيـــة نازلينـــا

إلى أن يقول في وضوح وثقة مخاطباً فرعون :

فؤادُ أجـــلّ « بالدستور » دنيا
وأشرف منك « بالإسلام » دينـــا

وكانت أشعاره ضد الدولة الغازية منبثة في كثير من قصائده، لا يفتأ يدعو الى الجهاد المقدس ، من أجـــل الخلاص من قبضة الاستعمار وفساده ، مما أدى إلى نفيه إلى أسبانيا لعدة سنوات ، فعانى من مرارة الغربة والتشريد ، لكن ذلـــك كله لم يفت من عضده ، ولم يضعف من عزيمته ، فعكف على كتابة المسرحيات

الشعرية لأول مرة في تاريخ الشعر العربي ، وكانت هذه المسرحيات وعاءً لكثير من القضايا والأفكار ، فقد صور فيها طبائع الشعوب ، وخفايا القصور ، ومكائد الغزاة ، وعمّق فيها الشعور بالقيم الإنسانية عامة ، وعلى الرغم من أن غالبية هذه المسرحيات ذات نزعة تاريخية ، إلا أنه اتخذ منها منبراً لبث أفكاره ، والترويج لفلسفته النابعة من التراث الإسلامي ، وروائع مبادئه وآدابه ، كما تعرض فيها لحقبات قلقة مضطربة في تاريخ الانسان أياً كان لونه وعصره ، وسجل فيها حقائق أزلية متنوعة ، نراه مثلاً في « مجنون ليلى » يصور المجتمع وصراعاته السياسية التي تتخذ من الدين غطاءً لها ، ففي حوار بين بعض المنتمين لأفكار معينة ، يقول أحد الأبطال :

أحب الحسين ولكننا
لساني عليه وقلبي معه

إذا الفتنة اضطربت في البلاد
ورمت النجاة فكن إمّعة

وهو بهذا التصوير القاسي الساخر ، ينفر من النفاق ، وينحو باللائمة على أولئك الذين يهربون من واقع الحياة ، ويخلعون رداء الانتماء الأخلاقي الصحيح ، وفي مصرع كيليوبترا ، يصور كيف تنخدع الشعوب بالباطل ، وتسير في ظل الزيف والبهتان. ولا تتبين الحقائق الأصيلة ، ويوجه سهام نقده للحكام الذين

يغررون بالشعوب ، وينحرفون بها عن الطريق السوي :

اسمع الشعب « ديوني »
كيف يوحون إليه

ملأ الجو هتافاً
بحياتيْ قاتليه

يا له من ببغاء
عقله في أذنيه

لقد كانت ثقافة شوقي والمامه بالتراث العربي والإسلامي من ذلك النوع الإصيل الذي تشبع به من منابعه الأولى ، وعايشه في حقبه المختلفة ، ومن ثم كان لبنائه الفكري سمات معينة واضحة ، إسلامية الروح ، شرقية المشرب ، ولم تنل من هذا البناء مكتسباته الثقافية والفكرية في فرنسا ، بل دعمتها ، وزادتها رسوخاً وشموخاً وقوة ، كما حياة القصور ، وتبعيته للخديوي لم تجعله يتجلى عن قضايا الشعب وحقوقه في الحرية ، وفي تحسين أوضاعه الإقتصادية والاجتماعية والسياسية .. كما وقف شوقي صلباً في وجه المؤامرات والتحديات التي أرادت القضاء على الخلافة الإسلامية ، ولم يكن دفاعه عن الخلافة دفاعاً عن أخطاء بعض الخلفاء وبطانتهم إلفاسدة ، وانما كان دفاعاً عن « الرمز الاسلامي » المتمثل في كيان الخلافة .

وكان شوقي بعيد النظرة ، رحب الأفق ، مرتبطاً في شعره بالاحداث العالميـــة الكبرى ، وبشخصيات العصر الشهيرة ، متعاطفاً مع حركات التحرير في شتى الانحاء ، فنراه مثلاً يستقبل غاندي في مصر بقصيدة طويلة يقول فيها :

سلام النيـــل يا غاندي
وهــذا الزهر من عندي

سلام حالب الشاة
سلام ناسج الــبردِ

ويحذر غاندي من الاستعمار وألاعيبه ومؤامراته، فيقـول :

وقـــل هاتوا أفاعيـكم
أتى الحاوي من الهندِ

والواقع أن المتصفح لديوان أمير الشعراء ، يجد فيه سجلاً حافـلاً للتاريخ الإسلامي وأحداثه الكبرى ، ويستخلص منها العبر والدروس ، ويدعو الأجيال الجديدة للعودة إلى تاريخها ، والنهل من منابعه الروحيـــة الخالدة ، ويعتبر ذلك هو البداية الحقيقية للانطلاق إلى عصر التحرر والعلم والكفاح ، ولقد ترنم بمجد قرطبة ، وعظمة دمشق ، وانتصارات بغداد ، في عصور التاريـخ الاسلامي الزاهر ، واحيا تلك الأمجاد الخالدة ، التي ما

زالت سطورها تضيء عبر القرون المتعاقبة ..

ومع أن شوقي لم يكون فيلسوفاً ، ولا زعيماً سياسياً ، إلا أنه كان « معلماً » بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى ، ومن ثم لم يكن هناك مثقف ولا طـــالب في مدرسة ، ولا خطيب على منبر ، إلا وترنم بأشعاره ، واستشهد بها في كلامه ، وليس هذا بعجيب بالنسبة لشاعر ، يعتـــبر من أحسن شعراء العربية في تاريخها الطويل ..

وما زال شعر شوقي فيحاجة إلى مزيد من الدراسة والتحليل فيما يتعلق بالنواحي الاسلامية فيه ، ومـــا أكثرها ، وليت المسؤولين يحاولون طبع هذه الألوان الاسلامية من شعره طبعات شعبية ، توزع على طلبة المدارس وفي الاندية ، حتى يلموا بروائع هـــذا الشاعر العظيم الذي عاش مخلصاً لوطنه .. ودينه .. وعصره .. على ضوء الاسلامية الخالدة .. وهـــل الاسلامية إلا منهج في الفكر والسلوك ؟؟ « صبغة الله ، ومن أحسن من الله صبغة ».

الفهرس